صلاح معاطي

محجوب بالمقلوب

قصص قصيرة

حتى النخاع

- هذا الفص يغريني ..
- يغريني أكثر الخاتم الذي يحمل الفص .. إنهما يساويان على الأقل عشرين ألفا أو تزيد
- وهذه الحقيبة الراقدة بجانبه داخل السيارة .. تراها محشـوة برزم من أوراق البنكنوت .
- هذا صحيح .. لقد رأيت الصراف اليوم وهو يرصها له فـي الحقيبة حتى امتلأت عن آخرها ..
- كل هذا سوف نحصل عليه بعد لحظات قلائل ..

كانا يراقبان الرجل وهو يقود سيارته المرسـيدس الفارهـة ، بينما كانا يستقلان دراجتهما البخارية ، وعندما اقتربا منه همـس أحدهما في أذن صاحبه الذي يقود الدراجة :

- عندما نصبح خارج المدينة ويخلو الطريق من المارة . حاول أن تتجاوز سيارته بقليل ، ثم انحرف يمينا في اتجاهه ، وحينما يتوقف دع الباقي علي ..

أوقف الرجل محرك سيارته فجأة وهو يصيح في انفعال :

- أما مجانين .. هل تنويان الانتحار ؟

اندفع أحدهما نحو الرجل جذبه بقوة ، ثم هوى على رأسه بمفتاح كبير كان معه .. وقع الرجل على الأرض جثة هامدة بينما أسرع الآخر إلى الحقيبة التي في السيارة .. اتجه صاحبه إلى الرجل الملقى على الأرض يأخذ كل ما يستطيع أخذه .. الخاتم الثمين .. النظارة ذات الإطارات الذهبية .. الساعة .. الولاعة .. القلم الأبنوس .. وما تبقى من نقود " فكة " كانت معه .. عاد الآخر وهو يحمل الحقيبة ووقف ينظر إلى الرجل الملقى على الأرض .. هزه صاحبه :

- هيا بنا ..

أخذ الآخر نفسا عميقا وهو يقول :

- ليس بعد .. فلنجرده من ملابسه .. الجاكت الذي يرتديه من قماش غالي الثمن والبنطلون أيضا ..

بعد أن انتهيا .. وقف الآخر ينظر إلى الرجل بنهم وشراهة .. جذبه صاحبه من يده وهو يصيح :

مالك تنظر إلى الرجل هكذا .. ما الذي تنوي أخذه أكثر ممـــا أخذنا .. دعه وهيا بنا قبل أن يفتضح أمرنا ..

نهره الآخر في عنف وهو يصيح :

- أسكت يا أبله .. ستظل طول عمرك لصا غبيا تجــري وراء النقود والذهب ، فالنقود قيمتها الشرائية تتغير من وقت لآخر، والذهب لم يعد له قيمة الآن ..
- لا أفهم ما تعنيه ..
- ليس ضروريا أن تفهم .. احمله معي داخل السيارة ، ثم افتح صندوق العدة الملحق بدراجتنا وهات منه الحقيبة السوداء...

في دقائق قليلة كان الرجل المسكين مترنحا داخل ســيارته ، متصلا به جهاز لشفط الدم بينما وقف الآخر وعلى شفتيه ابتسامة واسعة :

- من حسن الحظ أن الرجل مازال حيا وإلا ما استطعنا أن نأخذ دمه ..

صاح صاحبه بانفعال :

- وما شأننا بدمه وشحمه .. فلنهرب بدمنا نحن أفضل مــن أن نفقده على حبل المشنقة ..

ضحك الآخر وهو يعلق في سخرية :

- نقطة دم واحدة تساوي حياة مريض ، فضلا عن ثمنها الخرافي .. احسب عدد أكياس الدم التي سنحصل عليها من جسد هذا الرجل واضرب في ٤٠٠ أو ٥٠٠ سوف تساوي بالميت ...

قاطعه صاحبه :

- دعك من الميت وأخبرني .. هل تنوي أخذ شيء آخر ؟
- بالطبع .. سنأخذ كل شيء . الآن أصبحت للميت قيمة تفوق قيمته وهو حي .. إن أمامنا ثروة لا تقدر بثمن .. فبعد أن نفك الزبون سيدخل سوق الأعضاء ليباع كل عضو على حدة، فيدخل في أجساد أخرى تمشي على الأرض ، وبذلك يضيع أثر جريمتنا بين الناس ، فالأحياء صاروا مقابر لموتاهم ..

نظر له صاحبه في اشمئزاز قائلا :

- إنني أتعجب لك .. أليس لك قلب ؟

صاح الآخر وقد بدأ يفتح جسد الرجل :

- بالطبع لي قلب ولكنه ليس قلبي .. بل قلب صديق لي اختلفنا ذات يوم على خمسة جنيهات فشققت صدره وأخرجت قلبه ثم استبدلته بقلبي الموعوك ..

نظر له صاحبه في رعب وهو يقول :

- أ إلى هذه الدرجة .. بعت صديقك من أجل خمسة جنيهات ؟

أومأ الآخر وهو يستخرج قلب الرجل :

- وأبيع أبي من أجل جنيه واحد ..

ارتعد صاحبه في مكانه وهو يردد :

- ماذا ستفعل بي إذن ؟

ضحك الآخر وراح يربت على ذراع صاحبه مطمئنا :

- لا تخف يا صديقي فأنت ذراعي اليمين ..

تحسس صاحبه ذراعه الأيمن في خوف وهو يعض على شفتيه في حسرة :

- ذراعي اليمين .. من تكون ؟

أجابه الآخر وهو يحتفظ بالأعضاء الخارجة من جسد الرجل في قنينات وأكياس خاصة :

- أنا يا صديقي إنسان آخر غيري حكمت عليه الظروف أن يتكون من أجساد الناس ..

صاح صاحبه مازحا :

- تقصد أنك تجميع ولست من صنع بلادك ..

أجابه الآخر وهو يستخرج كبد الرجل ويحتفظ به في قنينته :

- ومن منا صنع بلاده ؟ .. الدماء التي تجري في عروقنا ليست دماءنا .. الأكباد التي بداخلنا ليست أكبادنا .. أعضاؤنا

الداخلية ليست ملكنا .. نحن في سوق حرة نباع ونشترى دون أن ندري .. والحاذق منا من يفهم اللعبة ويدخل فيها .

قال هذا وهو يضع آخر قطعة من جسد الرجل في قنينتها ، ثم أخذ نفسا عميقا وقال :

- ها أنا انتهيت .. هيا بنا ..

كان صاحبه منشغلا بالنظر في الخاتم الذي خلعـــه مـــن يـــد الرجل ووضعه في إصبعه ، وراح يدعك فصه ويقول :

- هذا الفص يغريني ..

نظر له الآخر في شراهة ، وأمسك بالسكين في يـــده وانـــدفع نحوصاحبه وهو يقول :

- يغريني أكثر الجسد الذي يحمل الفص ..

نصف آلي

تعلقت العيون بمؤشرات الحياة المنتشرة فـــي أنحـــاء الغرفـــة الواسعة .. الأيادي البيضاء تعبث بالجسد المســـجى فـــي ثبـــات عميق، تزيل ما فقد صلاحيته بفعل التقادم وتثبت بديلا عنه ليـــدفع بربق الحياة أياما أخر أو ساعات أو حتى دقائق ، فالدقيقة داخـــل غرفة العمليات يعمل لها ألف حساب .

الجو مشحون بالترقب والتوجس . نظـــرات خاطفـــة تتلاقـــى سريعا ثم تتشتت تحمل بين القلق والرجاء . حبات عرق تتصـــبب على الوجوه المتوترة . أدوات تعمل بهمة ونشاط جيئة وذهابـــا ، فهذه تقطع وأخرى توصل ، تلك تحل ورابعة تربط .

الوقت يمر بطيئا بطيئا . المـــوت والحيـــاة يتصـــارعان فـــي معركة شرسة بين طرفي مقص الجراح . مؤشر الحيـــاة توقـــف أكثر من مرة معلنا انتصار الموت ، لكنه يعود إلى الحركـــة مـــن

جديد بعد أن أمات قلوبا جزعا وفرقا . التقطت الأنفاس أخيرا بعد ساعات طوال مرت كالدهور اتحدت فيها حياة البشرية كلها مع حياة شخص واحد ممدد على سرير صغير لا يزيد حجمه عن حجم كفن .

رفع الجراح الكمامة من على وجهه راسما ابتسامة عريضة ، بينما صفق له الجميع وراحوا يهنئونه على نجاح العملية . هز رأسه في تواضع وثقة وسبقهم نحو باب غرفة العمليات تاركا الجسد وحيدا داخلها . ما أن فتح الباب حتى أطلت من الخارج وجوه أحاطت بالجراح العظيم ، راح أصحابها يتساءلون دفعة واحدة :

- كيف الحال يا دكتور . هل نجحت العملية . أمازال حيا . هل سيعيش ؟

أومأ مطمئنا إياهم دون أن ينبث بكلمة وترك نظراتهم تتبعه في حيرة تنطق بمعان متباينة من الحسرة والألم لم يستطع أصحابها إخفاءها ، فمهارة الجراح باعدت بينهم وبين إرث عظيم كانوا سيحصلون عليه . وفي كل مرة يسقط فيها الرجل لسبب أو لآخر يتنفسون الصعداء ويعاودهم الأمل القديم للحصول على الثروة . لكن في الوقت المناسب تتدخل التكنولوجيا المزعجة بتطورها السريع والمتلاحق لتقوض آمالهم وتقضي على أحلامهم

ماذا يفعلون مع رجل له أكثر من عشـــر عمليـــات مـــا بـــين تركيب أطراف صناعية وتغيير صمامات فتركيـــب قلـــب وكبـــد وكلى صناعية إلى جهاز هضـــمي آلـــي يقـــوم بعمليـــة الهضـــم والامتصاص بطريقة آلية بحتة ، وجهاز دوري آلي يؤدي الدورة الدموية أوتوماتيكيا عن طريق شعيرات دقيقة حساسة تمنع التجلط في الأوردة والشرايين ، وأخيرا خلايا مخية صـــناعية متطـــورة ثبتت برأسه عقب نزيف مخي مفاجئ لتقوم مقام الخلايا التي تلفت بالمخ من جراء النزيف . لكن يبدو أنهم تعودوا على ذلك فراحوا يهنئون بعضهم بعضا بحكم العادة والضرورة كـــاظمين مـــا فـــي قلوبهم من غيظ وإحباط .

***

ببطء شديد يفتح عينيه . يجول ببصره في أنحـــاء الغرفـــة . يتفرس الوجوه المحيطة به والتي صاحت عندما شعرت باسترداد وعيه :

- يحيى . حمدا لله على سلامتك يا أخي .
- لقد شغلتنا عليك .
- بركة أنك بخير .

تبدأ الأيادي تربت على مواضع الجراحات التـــي أنجـــزت ، كأنها تنعي آمالا تحطمت . يقرأ يحيى ما يدور خلف الوجوه التي

استطاعت أن ترسم ملامح الفرحة الكاذبة لنجاح العملية . يشيح بوجهه عنهم ويجهش . يدخل الطبيب فيستاء من تلك المظاهرة التي أحاطت بمريضه فيصيح :

- لا يا سادة . هذا خطر كبير على حياته . لو تحبونه حقا دعوه الآن .

يخرجون جميعاً ويبقى يحيى والطبيب الذي يلاحظ الدموع التي في عينيه فيصيح :

- لا لا يا يحيى بك . ينبغي أن تكون سعيدا في هذه اللحظة . لقد حققنا بك اليوم إنجازا عظيما يضاف إلى الإنجازات الأخرى .

صاح يحيى بصوت واهن تشوبه نبرة البكاء :

- أتعرف يا دكتور فؤاد . كم عملية أجريتها حتى الآن ؟
- أعرف بالطبع . ألست أنا الذي أجريتها لك جميعها ، ولكن ما الذي يضيرك ما دمت قادرا على تكاليفها ؟

مصمص يحيى شفتيه متأسيا :

- معنى هذا أن ثروتي هي السبب في بقائي على قيد الحياة إلى الآن . تعسا للفقراء إذن .

هز الدكتور فؤاد كتفيه مؤمنا على كلامه :

- من معه قرشا يساوي قرشا يا يحيى بك . ومع ذلـــك هنـــاك كثيرون لم تستطع أموالهم أن تعينهم علـــى العـــيش لحظـــة واحدة. لا تنس أن الموت والحياة بيد الله قبل كل شيء .
- ونعم بالله . لكن ما يزعجني حقا أن كل أعضائي استبدل بها أعضاء آلية . القلب ، الكبد ، الرئتان ، الكليتان ، حتى مخـــي أدخلت فيه خلايا تعمل بطريقة آلية . لقد أصـــبحت آليـــا يـــا دكتور فؤاد .

أشار له فؤاد مصححا وهو يغمز بعينيه :

- عفوا يا صديقي نصف آلي ، فما زالت بك أعضاء بشرية .

ثم انفجر ضاحكا وهو يخرج من الغرفة .

* * *

أيهما تفضل أن تكون نصف بشري تقنع بما هو متاح لك مـــن فرص محدودة ، أم تعيش نصف آلي ترضى بما منحته لك الحياة من قدرات وإمكانيات جديدة لا تتوفر لغيرك من البشر؟

كل شيء على ما يرام . جميـــع أجهزتـــه تعمـــل بكفـــاءة . الأطراف الصناعية تتحرك كما لو كانت طبيعية تمامـــا . القلـــب الصناعي يضخ الدم بانتظام كالساعة بلا تقديم أو تأخير . الكبـــد الكليتان الرئتان تعمل بدقة متناهية . المخ يـــؤدي وظائفـــه علـــى

أكمل وجه وأضيفت إليه قدرات جديدة بفضل الخلايا الإليكترونية التي ثبتت حديثا كسرعة الحفظ والتخزين وقوة الذاكرة .

وبالرغم من ذلك يشعر في قرارة نفسه أن ثمة تغييرا طرأ عليه ، كأن شيئا بداخله قد كسر . هل لأن ذاكرته الجديدة لم تعد تعرف النسيان ، جعلته لا يستطيع أن ينسى مكدرات الحياة ومنغصاتها ، فالنسيان نعمة بلا شك ، أم شعوره بأنه آلي لغته الأرقام والرموز يستمد قوته من بطاريات خاصة تقوم بتشغيل أجهزته الداخلية ، مشاعره شحنات كهربية مختزنة ، وحياته مربوطة بتروس تدور داخل جسده إذا توقف أحدها توقفت حياته كلها .

ياله من شعور غريب لم يعتره من قبل ، كما لو كان فقد شيئا مهما مغروسا في كيانه منذ ولد ، هذا الشيء كان يشعره بوجوده كلما التقى بنجوى ، فهي نموذج لامرأة مكتملة الأنوثة . غضة كثمرة مانجو مكتنزة تدلت في هيام فوق غصن رطيب ، وقد فاح عبقها الأخاذ الذي كان يصيبه بخدر لذيذ . شعرها الأسود الفاحم ينسدل في انسيابية تاركا خصلة منه فوق جبينها العاجي . عيناها البراقتان يتوه الناظر فيهما ، كأنه قصد مدينة أسطورية وقت السحر . شفتاها المكتنزتان يحار من يراها بين أن يلثمها فيخدش جمالها أو يتركها فيندم طيلة عمره .

الآن هي بين ذراعيه ، شفتاها بـين شـفتيه ، صـدرها فـي صدره، جسدها لصق جسده ، ولا يشعر بشـيء . فتـر شـعوره القديم فجأة ، كجذوة نار مشتعلة انسكب فوقها برميل من الـثلج . كادت تتوقف جميع أجهزته البشرية والآلية معا من هول الصدمة، فكارثة الرجل الذي يفقد رجولته لا تقل فظاعة عن كارثة المـرأة التي تفقد عذريتها . الخلايا المخية الإليكترونية التي زرعت فـي رأسه هي السبب بلا ريب .

هرع إلى الدكتور فؤاد تلاحقه جميع الأفكار السوداء .. أهـو الموت يدق بابه ودخل عليه من أهم أعضاء الجسـم حيويـة ؟ أم جراحة جديدة في الطريق إليه سيتم فيها زرع جهاز آلي جديد ؟ .

طمأنه الطبيب بعد عمل الفحوصات اللازمة أن لا داع للقلق ، فجميع أجهزته سليمة ويمكنه ممارسة حياته الطبيعية كيفما شاء . ثمة بعض الزيوت والشحومات ينبغي أن توضع لتليين جهاز ضخ الدم الآلي بالقلب للقيام بعمله على أكمل وجه .

- عظيم . الأمر بسيط إذن ، فليشحم ويزيت الجهاز المقصود .
- للأسف . إنه في حاجة إلى شحومات وزيوت من نوع خاص لا تتوفر إلا في بلد صنعها

يا لحظه السيئ . تنجح جميع العمليات الجراحية التي أجريت في جسده ، ويخفق في أول عملية يقوم بها كرجل . ولكـن تبـا

لليأس . سيذهب إلى آخر الدنيا . سيشتري بثروته كل شحومات وزيوت العالم لتكون في متناول يديه يدفع بها في جسده كلما أراد.

يتذكر الطبيب فجأة أن له قريبة " من بعيد " اشترت غسالة حديثة من ذات البلد ، والغسالة بها كم وفير من نفس نوع الشحومات والزيوت المطلوبة .

– ولم الانتظار ؟ .. هيا بنا إليها .

***

تمدد يحيى في استسلام ، واضطر الدكتور فؤاد أن يوصل بينه وبين الغسالة خرطوما رفيعا لسحب الشحومات والزيوت من الغسالة حيث كانت تختزن داخل مواسير خاصة بها ، ثم يبثها بيسر بين أجهزته الداخلية عن طريق شعيرات دقيقة . طول الوقت لم يرفع يحيى عينيه عنها .. الغسالة .. كأنه يشكر لها جميلها الذي لا ينسى . مقدرا تلك التضحية العظيمة التي قامت بها بالتبرع بجزء من زيتها وشحمها له ..

أما هي فكانت تتأمله بإعجاب خفي . لا تدري أترثي لحال ذلك الفتى الوسيم الممدد أمامها في استسلام وقد ارتبطت حياته بزيت غسالتها الجديدة ، مما جعله يداوم على زيارتها باستمرار لتشحيم وتزييت أجهزته الداخلية ، أم ترثي لحالها الذي جعلها

تتعلق بذلك الشاب ، فيمضيان في أحاديث مختلفة حتـــى ينصـــرم الوقت سريعا دون أن تشعر به .

يلاحظ يحيى نظرات الفتاة فيبتسم . يبدو عليهـــا الارتبـــاك . تهرب من نظراته بالحديث عن الغسالة :

- إنها غسالة فول أوتوماتيك . ذات مائـــة برنـــامج . ألمانيـــة الصنع.

يعقب في إعجاب :

- مثلي تماما ، فجميع أجهزتي الداخلية ألمانية الصنع .
- نظام تشغيلها أوتوماتيكي ذاتي . تعمل بقوة ٢٠ حصانا .
- كأنك تحدثيني عن نفسي .
- تقوم بعمل ٥٠ ألف لفة في الدقيقة الواحدة .
- دؤوبة . تقوم بكل هذا الجهد وحدها بلا شكوى أو ملل .

تتنبه الفتاة فتتساءل في دهشة :

- ماذا تقول يا أستاذ يحيى ؟
- لا لا أبدا . من فضلك أعطني الكتالوج ..

يتفحص الكتالوج الخاص بالغسالة وعينه تسترق النظر إلـــى "دنيا " صاحبتها .. يا لجمالها الطاغي ، إنها تفوق نجـــوى أنوثـــة وجمالا ، ومع ذلك يشعر بشيء يحول بينه وبينها ، بل يحول بينه وبين نساء العالم جميعا .. إنها آليته البشـــعة ، ذلـــك الإحســـاس

البغيض الذي تغلغل بداخله ليبدد إنسانيته ويحوله إلى آلة صـــماء بليدة ، لكي تعمل ينبغي تشحيمها وتزييتهـــا أولا .. لقـــد صـــار كبندقية نصف آلي قديمة لا تستطيع أن تطلق رصاصـــة واحـــدة وسط مدافع شرهة تهدر بعنف فتحيل الليل نهارا .

أجل يشعر بميل نحوها ، يستعذب حديثها ، يستشعر كل نبضة من نبضاتها ، لم يعد يستطيع الابتعاد عنها ، بل إن شيئا بداخلـــه يحدثه أن الفتاة تبادله نفس المشاعر ، وفي كل مرة يلتقيان فيهـــا يحس أن كلمة تتراقص على طرف لسانها تريد أن تنطـــق بهـــا ، ولكن أنوثتها تخونها ، وحياء المرأة يبتلـــع الكلمـــة فـــي الوقـــت المناسب .

حمد الله أنها لم تفوه بالكلمة التي طالما تمنى سماعها ، لأنهـــا ليست من حقه ، فهي بشرية وهو آلي ، أو نصف آلي كما يقـــول طبيبه الدكتور فؤاد . دنيا تحبه وهو أيضا يحبها ، لكن ما الفائـــدة وهو يعلم أن هذا الحب مكتوب عليه بالموت فـــي مهـــده . دنيـــا كسائر البشر تستطيع أن تحب وأن تُحب ، أما هـــو ففريـــد مـــن نوعه، ليس له مثيـــل علـــى وجـــه الأرض ، موديـــل جديـــد ، أوتوماتيكي ألماني . الحياة لا تعترف بـــه ولا تقـــر بوجـــوده .. أيحبها هي ، أم يحب غسالتها ، يكفي أن شحمها وزيتهـــا يجـــري

في جسده مجرى الدم .. ترى هل فقد انتماءه تماما لبنـــي البشـــر وصار آليا .. ربما ..

لو الأمر بيده لأوقف جميع الأجهزة التي تدور في أعماقـــه ، لو بإمكانه لنزع بطارية قلبه من داخل صدره ، لو يستطيع لفكـــك صواميله التي تربط أجهزته الداخلية بعضها ببعض ليتحول إلـــى قطع متناثرة من الخردة . هذه هي النهاية المناسبة له .. لذلك فمن الأفضل له أن يختفي . يبتعد . يذوب . حتى يستريح ويريح كـــل من حوله .

***

مرت أسابيع دون أن يعثر له على أثر .. تخلف عن برنامج الصيانة الدورية الذي كان قد حدده له مسبقا طبيبه الدكتور فؤاد ، حتى جلسات التشحيم والتزييت المقرر عقدها في منزل دنيـــا لـــم يحضرها .

بدأ القلق يساور دنيا ، وبعد فترة تردد كبحـــت فيهـــا جمـــاح نفسها حتى لا يفضحها حبها ، لم تعد تستطيع الانتظار وليعـــرف الجميع أنها تحب يحيى . أسرعت إلـــى قريبهـــا الـــدكتور فـــؤاد مستفسرة ، فإذا بها تجده لا يقل عنها قلقا لغياب يحيى الذي دخـــل أسبوعه الرابع ، وبدلا من أن يهدئ من روعها أشعل قلبها بقولـــه .. إن غياب هذا النصف آلي يشكل خطورة كبيرة على حياتـــه ،

خاصة وأن معظم أجهزته الداخلية في حاجة إلى صيانة ، كما أن بطارية القلب تحتاج إلى إعادة شحن .

جلست دنيا تبكي أمام غسالتها وكأنها تشكو لها وتبثها همومها ، فهي السبب في تعرفها عليه ، وهي الشاهد الوحيد على حبها .. لم تكن تدري أنها ستتعلق به إلى هذه الدرجة ، ولــم تعــرف أن وجوده في حياتها مهما هكذا إلا بعد اختفائه ، لقد وجدت فيه ما لم تجده في البشر جميعا . بالرغم من أنه نصف آلي فقد كان بالنسبة لها انسانا كاملا .

ترى كيف هو الآن ؟ هل مازالت أجهزته تعمل أم توقفــت ؟ هل مازال حيا . أم أنه .. آخر لقاء بينهما كان يائسا إلـــى درجـــة كبيرة ، بعدها اختفى تماما .

بينما هي كذلك دق الهاتف ، بيد مرتعشة أمســكت بالســماعة وهي تتوقع أن تسمع خبرا لا تود سماعه . كان صوت الــدكتور فؤاد على الجانب الآخر يخبرها أنه عثر على يحيى ملقيا في أحد الخرائب بين الموت الحياة ، وهو بصدد إجراء جراحـــة جديـــدة عاجلة له .

لم تنتظر . ألقت السماعة من يدها وطــارت إلـــى مستشـــفى الدكتور فؤاد . طالعتها وجوه أقاربـــه الـــذين تجمعـــوا كالمعتـــاد

ينتظرون لحظة خروج السر الإلهي يراودهم الحلم القديم . دفعت باب الغرفة التي يقيم فيها يحيى ودخلت وهي تبكي :

- يحيى . أين كنت . وماذا فعلت بنفسك ؟

تكلم يحيى بصوت لاهث أوشك أن يفارق الحياة :

- لقد تعبت يا دنيا وأتعبت من حولي . آن الأوان للنصف آلـــي أن يستريح .

- لا تقل ذلك . هل تظن أننا سنستريح ببعادك عنا . إنني فـــي أشد الاحتياج إليك .

- أنت ؟

- أجل أنا يا يحيى . أنا الذي عرفت الحب منذ ظهـــرت فـــي حياتي .

- لا يا دنيا . لست أنا الذي تبحثين عنه لكي يحقق لك الســعادة . أنت بشرية من لحم ودم تستحقين بشريا مثلك يحبك وتحبينه تنجبان أبناء مثلكما ، أما أنا فلا يوجد إنسان نصف آلي مثلي قلبه يعمل ببطارية ١٢ فولت وعقله موديل ٢٥٠٠ .. ما أنـــا في حقيقة الأمر سوى ماكينة بشرية متحركـــة تخضـــع لكـــل النظم التي تحدد التعامل مع الآلات والماكينات استعضت عن هويتي البشرية بمجموعة من الكتالوجات حول كيفية تشـــغيل الأجهزة الداخلية وبعض التحذيرات مـــن ســـوء الاســـتخدام

وشهادات ضمان وشروط التخزين وتاريخ الصلاحية .. الــخ .. هذه هي هويتي الجديدة التي لا أستطيع التحرك إلا بها . لا يا دنيا . لست أنا الذي تبحثين عنه .

انتابتها حالة من الضحك والبكاء الهستيري وراحــت تقــول بكلمات أشبه بصرخات :

- بل أنت يا يحيى . أنت ولا أحد غيرك . أتعرف لماذا ؟ لأنني مثلك تماما . آلية . آلية من لحم ودم وأجهزة وآلات .

ينتبه يحيى قبل أن يروح في إغماءة ويصيح متسائلا :

- ماذا قلت ؟

راحت تعيد عليه وهي تبكي :

- أجل أنا آلية من قمة رأسي إلى أخمص قدمي . آليــة حتــى النخاع . استبدلت جميع أجهزتي عقب حــادث كــاد يــودي بحياتي . وقضيت سنوات عمري فاقدة الأمن ، ألملم نظــرات الشفقة والرثاء من عيون من حولي . حتى ظهرت في حياتي فجأة لتعيد إلى الأمل المفقود .

لم يصدق يحيى ما سمعه من دنيا ، أمعقول هذا ، هــل وجــد أخيرا نصف آلية مثله قلبها كقلبه ، عقلها كعقله ، تفكيرها يطــابق تفكيره ، مشاعرها تكافئ مشــاعره ، يتحــدثان لغــة واحــدة ،

يحتويهما هم واحد ، لا يمثل الاختلاف بينهما نقطة ضعف تستوجب الشعور بالرثاء أو الشفقة.

كان قد بدأ يذهب في غيبوبة بفعل المخدر وبالرغم من ذلك تحامل على نفسه وتراقصت على شفتيه ابتسامة ممزوجة بأمل جديد وراح يتطلع إلى وجه دنيا وهو يهمس :

- أحبك .

بينما أخذت الأيدي تدفعه نحو غرفة العمليات ، وكانت دنيا تردد خلفه :

- سوف تعيش يا يحيى ، سوف تعيش . من أجل دنيا تحبك . لن يشعر بك أحد سواي ، ولن يحس بيْ أحد غيرك ، إذا تألمت فلن تجد غير ذراعي الميكانيكية لتربت عليك ، وإذا حزنت لن تجد من يستمع لشكواك غير أذني الإليكترونيتين ، وإذا مرضت ستجد عدسات عيني ساهرتين من أجلك . وإذا تعطلت بطارية أحدنا ، يكفينا بطارية واحدة لتشحن قلبينا ، فلا يشعر بمتاعب الآخر إلا من هو مثله . وتأكد أن الحياة ترفض الندرة ولا تعترف بالفردية هذه هي فلسفة الحياة منذ الأزل .. ستعيش يا يحيى . ستعيش حتى ولو كنت نصف آلي .

السيد بايت

لم تكن الأمور على ما يرام أمام المؤسسة العامة للأبحاث النووية ، فقد كانت الحركة غير عادية .. زحام أمام المبنى الضخم ، محطات الإذاعة والتليفزيون تتخذ مواضعها لاستطلاع الأخبار ، وكالات الأنباء المحلية والعالمية تحتشد ليتسنى لكل منها السبق قبل الأخرى ، عربات الشرطة تشق طريقها وسط الزحام ويتقاذف منها الرجال شاهرين أسلحتهم وفي ثانية سيطروا على المبنى ، ووقف بعضهم على الباب لمنع أي أحدَ من الدخول، الناس تتساءل في ذهول وحيرة :

- ما الذي حدث ؟

ترددت أنباء عن تورط الدكتور " مشهور " رئيس المؤسسة في تسريب معلومات خطيرة تضر بأمن وسلامة الوطن حول المفاعل النووي الذي أنشئ حديثا بمنطقة المقطم مقابل الحصول

على بعض المال . بعد قليل شوهد الدكتور " مشهور " خارجا من المبنى بصحبة رجال الشرطة يبدو عليه الانهيار وقد تشعث شعره وتهدلت ملابسه ، واندفع الناس نحوه وهم يتساءلون مستفسرين ، بينما الكاميرات تلتقط له العديد من الصور ، أطرق الدكتور مشهور قليلا ثم نظر في الوجوه المحيطة بعينين تملؤها الدموع ونطق بصعوبة :

- بايت ..

ولم يزد ، فقد دفعته الأيدي القوية نحو سيارات الشرطة التي انطلقت به مبتعدة ، تاركا على الوجوه مزيدا من علامات الاستفهام ..

- بايت .. ماذا يقصد ببايت ؟ هل اسم حركي لشخص ما ، أم أنها شفرة سرية ؟

مرت الأيام ونسي الناس الدكتور مشهور والسيد بايت الذي زج به في ظلمات السجون ليلقى أسوأ مصير . حتى تم القبض مؤخرا على الممثل الشهير " فادي رأفت " بتهمة التجسس لصالح دولة أجنبية ، وعندما سألوه وهو في الطريق إلى المحاكمة عن كيفية القبض عليه نكس رأسه وأجاب بصوت مختنق :

- بايت .. .

وعاد الاسم يتردد من جديد حاملا معه الرعب والقلق ، وكلما حاول أحد فك رموزه وإزالة الغموض عنه يزداد غموضه أكثر فأكثر ، خاصة عندما قبض على الفنانة المعروفة "سوسو وجدي" في قضية آداب ونطقت نفس الاسم " بايت " عندما سئلت عن السبب ..

وراح الجميع يفتشون حولهم عن " بايت " هذا لعله يكون مختبئا تحت السرير أو داخل الدولاب أو ربما بين ذرات الهواء الذي نتنفسه دون أن ندري ليجر علينا المصائب والكوارث . واتخذ البعض من بايت وسيلة للسخرية ، فمنهم من زعم أن بايت ما هو إلا كاميرا خفية مدسوسة بيننا وأن الأمر لن يعدو في النهاية عن مزحة سخيفة . ومنهم من أكد أن " بايت " سلاح جديد مستورد من الخارج تستعمله قوات الأمن لمساعدتها في الإيقاع بالمجرمين ..

وبدأت شركات الدعاية والإعلان تتخذ من بايت شعارا لها .. " بايت يقضي على الحشرات الطائرة والزاحفة .. بايت له قوة قتل ثلاثية .. إذا أردت الأمان فاستعمل بايت .. أنا اسمي المسحوق بايت .. وهكذا .. "

بينما كان حسام رشدي مدير الشركة الدولية للتجارة يجلس أمام جهاز الكمبيوتر يقوم بحفظ بعض الملفات والمستندات الهامة

بذاكرة الجهاز ، وما كاد ينتهي من بث رسالة عبر شبكة الإنترنت .. فوجئ برد غريب أمامه على الشاشة :

- نشكر لكم تعاونكم معنا .. التوقيع .. بايت

واتسعت حدقتا حسام على الشاشة وجف حلقه وراح قلبه يدق بشدة حتى كاد يغمى عليه ، كان من بين الملفات مستندات خطيرة تحتوي على تجاوزات مالية ومخالفات قانونية تضعه تحت طائلة القانون ، لذلك قام بحرق كل الأوراق التي تدينه واكتفى بحفظها على الكمبيوتر وهاهي تصل إلى السيد بايت الذي ألقى الرعب في قلوب الجميع .. لم يفق حسام من ذهوله إلا ورجال الشرطة يقتحمون المكان ويلقون القبض عليه .. راح حسام يصرخ في انهيار :

- بايت .. بايت .. بايت ..

من بايت هذا ؟ هل هو فيروس يقوم بإفشاء الملفات والمستندات الهامة ونشرها على الملأ أم أنه شخص يتلصص بطريقة أو بأخرى على أسرار الناس ، أو عقل شرير يحاول إظهار إمكانياته الخطيرة في الوصول إلى الأجهزة الشخصية للناس وقراءتها ومعرفة أدق أسرارهم ثم مطالباتهم بمبالغ طائلة مقابل سكوته وإلا سينشر كل فضائحهم على الملأ ..

وتحول الحديث عن بايت من مجرد حــالات عارضـــة إلـــى ظاهرة تحتاج إلى دراسة متعمقة وبدأ الرعب يستولي على الجميع ، فما أكثر الأسرار المبثوثة داخل هذه الجهاز الخطير "الكمبيــوتر " .. وراحت الواقعات تتوالى .. ملفات هامة تختفـــي ، مســـتندات خطيرة تمحى ، معلومات حيوية تتسرب ..

ها هي برامج مقاومة الفيروسات تتبع الفيــروس الغريـــب " بايت " محاولة الإمساك به والقضاء عليه قبل أن يستفحل أمـــره . لكنها لم تقف له على أثر ، بل أكثرها أثبـــت أن "بايـــت " لـــيس فيروسا كالفيروسات المعتادة التي تقوم بنســـخ نفســـها أو تـــدمير الملفات أو إعطاء معلومات غير صحيحة تؤثر على عملية الحفظ التي يقوم بها الكمبيوتر ، وإنما ينسخ ملفات معينة مـــن الأجهـــزة الشخصية للناس ثم يبث هذه الملفات عبر شـــبكة الإنترنـــت بمـــا تحتويه من معلومات خطيرة تضر بمصالح أصحابها .

وتحول السؤال من الاستفسار عن كنه هذا الفيروس إلـــى مـــا الذي يريده السيد بايت .. راح السيد بايت يتغلغل في كل مكـــان ، بدأت حوادث من نوع جديد تنتشر .. منها جريمة قتل قـــام بهـــا زوج ضد زوجته بعد أن دله بايت على مراسلات بينهـــا وبـــين عشيقها ..

وانتحار موظف بأحد البنوك بإلقاء نفسه من الطابق السابع بعد أن أفشى بايت عن اختلاسه مبلغا كبيرا من المال من خزينة البنك بالرغم من أنه قام بتسوية الحسابات بشكل يصعب معه اكتشاف عملية الاختلاس .

والقبض على أحد المزيفين قام بطبع ورقة مالية من فئة المائة جنيه ولكن قبل أن تخرج الورقة من الطابعة كان بايت قد نشر الورقة على الجميع وأرشد عن مكان المزيف .

بات واضحا أن بايت شخص أو تنظيم يبغي إفشاء أسرار من نوع خاص ، ولا سيما الأسرار التي ينزلق أصحابها بعيدا عن الضمير الإنساني ، وما أكثرهم .. وأسرع كل منهم نحو الجهاز اللعين يمحو بنفسه ما حفظه عليه من بيانات أو معلومات قد تجر عليه الوبال ، بعد أن تحول الكمبيوتر من جهاز أمين يقوم بحفظ البيانات والمعلومات الهامة إلى جهاز "فتان" يقوم بنقل ما خبئوه داخله من أسرار على الملأ لتصبح فضيحتهم بجلاجل .. تسرب الفيروس إليهم ، ولكن بعد ماذا ، فقد حفظ بايت كل شيء وانتهى الأمر ، ومضى يبث ما بداخله على الناس . لم يفرق بين شخص ودولة ولا حاكم و محكوم ..

فها هو يعلن على الملأ البرنامج النووي لإحدى الدول التي تدعي أنها خالية من أسلحة الدمار الشامل ، وها هي ميزانية أحد

المشروعات الكبرى مبينا فيها الأرقام الحقيقية التي صرفت بالفعل على المشروع والمبالغ التي دخلت في جيب أحد كبار المسئولين ، وهذه رسالة من زوجة توهم زوجها بالإخلاص والوفاء بينما هي على علاقة بشخص آخر ، وهذه وثيقة زواج عرفي حررها زوج مخادع أقنع زوجته أن تكتب جميع ممتلكاتها باسمه ليصرفها على زوجته الثانية ، وتلك مستندات شحنة مواد غذائية فاسدة جلبها إلى البلاد مستورد مات ضميره كذب وخداع ونصب واحتيال ..

سادت حالة من الذعر والفوضى . سقطت حكومات واندلعت حروب وخربت بيوت وأفلس أثرياء ، وراح كل شخص ينتظر مصيره المحتوم على يد هذا الفيروس المزعوم الذي لا يزيد حجمه عن ١ بايت فقط . وبقدر ما أفزع أناسا وكدر صفوهم وأحال حياتهم جحيما ، بقدر ما أسعد آخرين وأثلج صدورهم وتنفسوا الصعداء عملا بالمثل القائل "مصائب قوم عند قوم فوائد" وراحوا يرددون :

- إنه سخط من الله . يسلط أبدانا على أبدان . دعهم يلاقون جزاء ما اقترفوا من آثام .

ويرد آخر :

- يوضع سره في أصغر خلقه .

ويرفعون أكفهم بالدعاء للسيد بايت أن يعلي مراتبه من ١بايت إلى ميجا بايت . وينقسم الناس فريقين . فريق راح ينظر إلى " بايت " على أنه بطل قومي سوف يظهر لهم في الوقت المناسب ليشد من أزرهم ويحقق لهم العدالة التي حرموا منها ، وفريق ينظر إليه على أنه طاغية جاء ليقضي على آمالهم وأحلامهم . لذلك يجب القضاء عليه بأسرع ما يمكن .

وتنتشر الخرافات والتكهنات حول حقيقة " بايت " فمنهم من يقول إنه عالم مجنون استطاع ضغط جسمه حتى تحول إلى موجة إليكترونية حجمها " ١ بايت " ودخل جهاز الكمبيوتر الخاص به عن طريق الأسطوانة المرنة " الديسك " ومنها انطلق إلى شبكة "الإنترنت"

ومنهم من يزعم أنه فيروس فضائي انطلق من كوكب بعيد عن الأرض وتسرب إلينا عن طريق الأقمار الصناعية التي تدور حول الأرض ..

ويهمس رجل في أذن صاحبه :

- من الأفضل لنا أن نوقف جميع عملياتنا الآن حتى يختفي هذا البايت اللعين .

ويرفض أحد الموردين صفقة مشبوهة بالرغم من ضخامة المبلغ المعروض عليه كرشوة ، فالجو غير آمن وبايت مفتح

عينيه على آخرهما . وترفع امرأة سماعة الهاتف بيـد مرتعشـة وتحدث رجلا على الجانب الآخر بصوت خفيض مرتعش :

- شوقي . لن نلتقي بعد اليوم ومن الأفضل ألا تتصل بي مـرة أخرى . فليس بعيدا أن يكون الهاتف أيضا مراقب من " بايت " . وينقل تفاصيل مكالماتنا إلى زوجي .

أما زوجها فقد هجر نزواته وعاد إلى بيته وعمله متمنيـا أن ينسى بايت زلاته وخطاياه .

ويتحول الرعب والفزع من بايت إلى تغييرات مفاجئـة فـي سلوك الناس وتعاملاتهم مع بعضهم البعض ، فتسود حالـة مـن الذوق العام والالتزام والانضباط لم تكن سائدة من قبل ، فهنـاك رقيب خفي يحصي تصرفات الناس وتحركاتهم ولا أحد يعلم مـا يمكن أن يفعله بايت في الأيام المقبلة . وقد تتخذ اللهجة التحذيرية لبايت شكلا انتقاميا عنيفا .. شيئا فشيئا تتحول الفوضى إلى نظـام والعنف إلى رقة والكراهية إلى حب ..

وأمام أجهزة الكمبيوتر مازال الناس يبحثون عن السيد بايـت لمعرفة سره وما الذي يريده وما يمكن أن يفعله معهـم .. لكـن بايت لم يعد له وجود .. كما ظهر فجأة اختفـى فجـأة .. صـار اختفاؤه سرا غامضا . وتحول إلى رمز مختصـر علـى شاشـة

الكمبيوتر عندما تضغط عليه تجد عبارة مكتـــوب فيهـــا .. " لـــو بداخل كل منا ١ بايت لصارت الحياة أجمل بكثير "

مع تحيات

السيد بايت

سعدون بدون أجنحة

تبا لتجار هذا الزمان وسماسرته الذين لم يدعوا مكانا للقيم ولا الأخلاق ، فصار كل شيء لديهم قابلا للبيع حتى الأمانة والشرف .. فاستباحوا الرذيلة وداسوا بأقدامهم كل المعاني النبيلة ، وأصبح مبدؤهم الأوحد " الغاية تبرر الوسيلة " .

وأخشى من التجار ذلك النوع الذي يستطيع أن يمارس أكثر من تجارة في وقت واحد . فأكثر بضاعته الكلام .. يلف ويدور حولك واهما إياك أنك الرابح في النهاية وأنه لا يبغي سوى مصلحتك ، فيبيع لك الترام والهرم والبرج ونهر النيل وبعد أن يبيع لك الهواء يبيعك بثمن بخس . وسعدون من هذا النوع ..

لا أدري متى تعرفت به .ولا الظروف التي دفعت به في طريقي ، ولكن هكذا ظهر في حياتي .ولبد داخل كياني كالفيروس الخطير الذي لا يترك الجسد ولا بالطبل البلدي وفي نفس الوقت

لا تفلح معه أي طعوم أو أمصال . فرجل مثل سعدون يستطيع أن يغير جلده وشكله ولونه كل لحظة .

ولأنني صديقه الأوحد كنت ضحيته الأولى .. فاعتاد أن يمارس معي مواهبه الفريدة مستغلا صداقتنا ، فعندما كنا صغارا نرتع في سني الطفولة البريئة باع لي سعدون دفتر توفير البريد الخاص بوالده واهما إياي بأنني سأحصل منه على ثروة طائلة، وصدقته حتى اكتشفت الخدعة .. لكنه سرعان ما رجع آسفا نادما على فعلته الشنعاء واضعا أمامي سيلا من التبريرات والأعذار .

ما أن يراني يتهلل وجهه ويتسع شدقاه حتى تبدو أنيابه كالنمر الجائع الذي عثر على فريسة بعد طول انتظار، ثم يبدأ في معاتبتي بدون سبب :

- لا يا ويزا لا .. شهر يمر دون أن تقول أزور صديق العمر سعدون، يخونك العيش والملح لقد كنت أنوي ألا أصافحك أبدا لكن العشرة لا تهون على أية حال وصداقة السنين لا تذوب مهما حدث بيننا من خلاف .

وويزا .. ليس اسمي بالطبع ولا يوجد باسمي حرف واحد من حروف كلمة " ويزا "، لكن أطلقه علي " سعدون " تيمنا باسم لعبة أطفال تحمل نفس الاسم يعتقد أنها جلبت له الحظ والسعادة .

يطرق سعدون قليلا ثم يقول بجدية :

- وإذا كنت أخطأت في حقك فسامحني، ماذا أفعل في قلبي الطيب الذي لا يستطيع أن يحمل لك ضغينة أو حقدا . فأنا إنسان بلا أجنحة كما تعلم وأنت جناحي اللذين أحلق بهما .

بهذه الكلمات كان سعدون يذيب ما بيننا من جليد ويحطم ما نشأ من جبال وعراقيل . لكن سرعان ما يبدأ التاجر الكامن في أعماقه بالتحرك، فيدفع لي بورقة وهو يقول :

- خذ هذه .

بتردد تمتد يدي إلى الورقة وأنا أتساءل :

- ما هذه يا سعدون ؟

- خذها ولا تخف . حظك حلو أنك قابلتني اليوم .

تجري عيني على الورقة مستعرضة بنودها العديدة بينما يمضي سعدون في عرض بضاعته ممارسا هوايته التجارية الفريدة وقدرته الرهيبة على الإقناع فأتحول في لحظة من صديق إلى زبون .. هكذا كان سعدون يحسب لكل شيء حسابه . لغته الأرقام . مشاعره مرتبطة برقم سيحصل عليه في النهاية . الربح هو الحقيقة الوحيدة في حياته أما الخسارة فلا معنى لها .

ذات يوم وجدته يهرع إلي يطلبني على عجل، حاولت أن أستفسر منه عن السبب فصاح بحدة :

- دع ما في يدك واتبعني على الفور .

ذهبت معه إلى البيت لأجده قد تحول إلى حظيرة دواجـن ..

سألته بدهشة :

- سعدون .. ما هذا ؟

ضحك وهو يسن السكين :

- كما ترى .. دجاجات من جدود الدواجن أطعمتهـا وعلفتهـا وسمنتها وحان وقت السكين .

لم أفهم شيئا . في بداية الأمر ظننت أن سـعدون يحـاول أن يكفر عن أفعاله معي ومع غيري فقرر أن يذبح هذا الذبح العظـيم لوجه الله . أمسك سعدون بأول دجاجة وعمل فيها السكين وهـو يكبر بصوت عال ، ثم ألقى بها على الأرض تاركا روحها تخرج في هدوء وأمسك غيرها وهو يحدثني بصوت أجش :

- محدش بياكلها بالساهل .

كنت أتأمل الدجاجة الأولى وهي تـرفس وتفرفـر وتضـرب الهواء بأرجلها محاولة التشبث بالحياة التي حرمها منها سـعدون، وقد تخضب ريشها بالدماء . ألقى سعدون بالثانية لتلحـق بأختهـا وأمسك الثالثة :

- لا تدري يا ويزا كم تعبت من أجـل الحصـول علـى هـذه الدجاجات .

- كان الله في عونك يا سعدون . تأكد أن عمل الخير جزاؤه الجنة . لكن ما كان ينبغي ذبح هذا العدد من الدجاج . كان يكفي خمسة أو عشرة والأجر والثواب عند الله .

أسرع يقول وهو يلقي بالرابعة بلهجة الخبير المتمرس :

- خمسة أو عشرة لا تنفع يا ويزا

قلت محدثا نفسي بصوت خفيض :

- معك حق، فأفعالك معي لا يمحوها سوى ذبح مائة عجل وليس دجاجة . عظم الله أجرك يا صديقي وغفر ذنبك وتقبل نذرك .

قطب حاجبيه لدى سماعه كلمة النذر وصاح وهو يلقي بدجاجتين مذبوحتين مرة واحدة :

- نذر ؟
- بالطبع، فالخطايا والذنوب لا يمحوها غير الصدقات والنذور .

ضحك وهو يجري بالسكين على رقبة دجاجة بعنف ويقول :

- يالك من ساذج يا ويزا . هذه طلبية كنت قد قبضت عربونها وسوف أقوم بتسليمها اليوم .
- طلبية . أ لك يد في الدجاج أيضا ؟
- التجارة شطارة يا صديقي ، والدجاج سلعة مثل أي سلعة .

- ومن المجنون الذي تاقت نفسه للدجاج حتـــى يشـــتهيه بهـــذه الصورة البشعة ؟

أومأ وهو يبتسم بثقة :

- هذا ليس دجاج يا ويزا . بل ديوك رومي .

صرخت :

- وهل سأتوه عن الديوك الرومي يا سعدون . إنها دجاجات بلا شك وها هي أعرافها الصغيرة ناتئة فوق رؤوسها وقد هربت منها الدماء .

ألقى بدجاجة أخرى فوق الجثث التي ملأت البانيو وقال :

- من اليوم هي ديوك رومية .. فقد طلب مني رجل ميســـور أن أحضر له عشرين ديكا روميا مذبوحين ومقطعين لعمل وليمة ضخمة، فأحضرت هذه الدجاجات الكبيرة وحقنتها بهرمونات ديوك رومية لتأخذ نفس الطعــم ، وبعــد الــذبح والتنظيــف والتقطيع يتوه الجميع في المرق، فلا تعرف هذه من تلك .

صرخت في انفعال :

-هذا غش يا سعدون . نصب . احتيال ..

دفعني في كتفي بيده الملوثة بدماء الدجاج وهو يقول :

- ستظل طول عمرك غبيا يا ويزا . هذه الدجاجات الســمينات أبرك ألف مرة من الديوك الرومية ، فهي سهلة الهضم خفيفة على المعدة والأهم من ذلك خالية من الكوليسترول .

رحت أتطلع إلى وجهه والعرق يتصبب عليه وفمه المفتــوح حتى بدت أنيابه ويداه الغارقتان في الدماء، فأحسست أنني أمــام دراكولا وخشيت أن تمتد يده بالسكين نحوي ويذبحني أنا الآخــر كالدجاج .

أسرعت من أمامه بينما كان ينادي خلفي :

– ويزا . ويزا . انتظر . من سينظف تلك الديوك الرومية معي .

أفضل شيء فعلته أني قاطعــت ســعدون ، فلــيس ســعدون بالصديق الذي تطمئن النفس إليه ويظهر وقــت الشــدة ، ولــيس المكر والخداع من شيم الأصدقاء ..

لم تمض غير أيام قلائل حتى وجدته أمــام البيــت مطــأطئ الرأس يقرصه الندم ويعضه تأنيب الضمير ، ما أن رآنــي حتــى ألقى بجسده الضخم علي وهو يجهش ويقول :

- سامحني يا ويزا واصفح عني فأنا مكســور الجنــاح وأنــت جناحي . لعن الله الشيطان الذي دخل بيننا وأفسد صداقتنا .

هل رأيت يوما سمكة تأكل الطعم إلى نهايته وتســتلذ بــه .. تمضغه وتبلعه ، وأخيرا تلعق بلسانها السكين الــذي غــرس بــه

الطعم بل وتغرسه بدورها في فمها لتتعلق في سنارة الصياد ..
أجل كنت أنا تلك السمكة .. صدقت سعدون وأنا أعلم أنه لن يتغير وأن الداء متغلغل في أعماقه ..

سافرت في بعثة إلى الخارج للحصول على الدكتوراه وعند عودتي كانت دهشتي كبيرة عندما رأيت سعدون في استقبالي بالمطار . لم أنس بعد أننا في قطيعة منذ آخر لقاء بيننا لكنني أكبرت له موقفه النبيل هذا .. ما أن رآني حتى عانقني بحرارة وبللت دموعه خدي وراح يقول :

- لا أستطيع أن أصف لك يا صديقي العزيز كم مرت علي هذه السنوات الطوال ، شعرت فيها أني بدون أجنحة .

نظرت له مليا لأتحسس مواطن التغير فيه وأنا أقول :

- تغيرت كثيرا يا سعدون .

يبدو أنه فطن إلى ما أرمي إليه فهز رأسه وراح يعبث بلحيته وقال :

- لا تنظر إلى وجهي ولا للحيتي يا ويزا ، فقد تغيرت من داخلي أيضا . وهذا هو الأهم .

ثم سكت قليلا وبادرني :

- ها يا ويزا . ما الذي تنوي فعله بالدكتوراه التي حصلت عليها ؟

رحت أقول محدثا إياه بينما راح يدير مُحرك سيارته وينطلـق بها :

- لا أدري يا سعدون، فكما تعلم أن تخصصـي هـو الهندسـة الوراثية وبالتحديد زراعة الجينات وهذا الموضـوع مـازال حديثا هنا في مصر .

ضرب ركبتي بيده الثقيلة وهو يقول :

- لا يهمك . الحل عندي .

قطبت حاجبي في دهشة بينما راح يرسـم ابتسـامة واسـعة ويقول :

- سأشاركك .

وكأن صاعقة هوت فوق رأسي فرحت أقول :

- ثانية . مستحيل . لا يلدغ مؤمن من جحـر مـرتين . لـكن أصدقاء أفضل يا سعدون .

قبض على يدي بقوة وهو يقول في إصرار :

- لا تتعجل يا ويزا . كعادتي بك دائما مندفع واندفاعك هو الذي يضيع منك الفرص . أنصت لي جيدا . سنفتتح مستشفى على أحدث طراز لن تدفع مليما واحدا . أنا برأس المـال وأنـت بالخبرة .

بدأت الفكرة تروق لي بالرغم من معرفتي الجيـــدة بســـعدون، فليس سعدون بالمغامر الذي يضحي بعدة ملايين من أجل شخص حتى ولو كنت أعز أصدقائه ويزا .. رحت أقول :

- ولكن الطب مهنة غير مربحة يا سعدون كما تظن وقد تخسر مالك كله بلا طائل .

أجاب بحكم الواثق :

- لا شأن لك بي . كل ما عليك أن توقع على العقد .

صدقته ووقعت العقد وخلال أشهر قليلة كان المستشفى مقامــا ومعدا لاستقبال مرضاه أصدق تعبير عنه "مستشفى خمس نجــوم" بدأ الشك يساورني . ما الذي يفكر فيــه ســعدون ؟ .. صــدقت ظنوني عندما دس داخل المستشفى طبيبا أعرفه جيدا . لا يمكــن للرحمة أن تجد طريقا إلى قلبه ، فقد أجرى عدة عمليات مشبوهة فصل بسببها من نقابة الأطباء وحكم عليه بممارسة المهنة . ولكن الأيادي الخفية تصنع المعجزات وها هو قد عاد ثانيــة ليمــارس المهنة من جديد . ورأيت في هذا الطبيــب وجهــا آخــر لعملــة سعدون .

بدأت أراقبهما عن كثب حتى سمعت بأذني ما أكد ظنــوني . اتفاق سري على بيع عدة أعضاء بشرية بمبالغ خرافية سيحصلون عليها من مرضاي . كدت أبلغ الشرطة لولا فكرة مدهشة طــرأت

على خاطري . سعدون . أجل هو الرأس المدبر الذي يخطط لكل عملية المقصود بها الحصول على المال بكل الوسائل مشـــروعة كانت أم غير مشروعة . إذن لابد من قص أجنحة سعدون .

في الصباح التالي كان سعدون ممدا أمامي في غرفة العمليات بعد أن أقنعته بأخذ عينة من دمه لعمل بعض التجـــارب عليهـــا ، ولا أخفيكم سرا دفعت فيها مبلغا من المال بعد أن أخذ يســـاومني بحجة أن دمه ليس دما عاديا وإنما كلفه الشيء الكثيـــر . وتحـــت المجهر الإليكتروني بدأت أفحص خلايا سعدون . كنت أريـــد أن أصل إلى الخريطة الجينية لسعدون فكما يستطيع العلـــم تجميـــل أجسادنا عليه أيضا أن يجمل في صفاتنا .

لم يكن سعدون بحاجة إلى تغيير صفات بقدر ما يحتاج إلـــى خريطة جينية جديدة تحمل صفات شخص آخر ليست الحياة عنده مغلقة على المكسب والتجارة والحسابات ، فقد كان التاجر الـــذي بداخل سعدون يبرز لي من داخل كل خلية ومن خلف كل جـــين فكنت ألاحقه بخلايا بديلة منزوعة مـــن أجســـاد فنـــانين وأدبـــاء وشعراء مشهود لهم بالرومانسية والشاعرية وزهدهم فـــي المـــال والتجارة .

داخل غرفة العمليات تم كل شيء ، وأرجو ألا يفهم عني أني أخليت بأمانة مهنتي وقدسيتها . بل إن القسم الذي أقسمته هو الذي

دفعني إلى ذلك العمل الإنساني . فما أجمـــل أن تختـــار صـــفات صديقك بنفسك بما يتلاءم مع صفاتك .

بدأ سعدون يفتح عينيه ببطء . تلفت حوله في أنحاء الغرفـــة . راح ينظر لي مليا وهو يتساءل :

- أين أنا ؟

طمأنته قائلا :

- اطمئن يا سعدون أنت في المستشفى .
- المستشفى . هل وقع لي حادث .
- أبدا أبدا . أنت بخير .

بدأ سعدون يترك فراشه ويدور في أنحاء الغرفة :

- لماذا لا تفتح النافذة . أريد أن أرى ضوء الشمس الوليد وهـــو يبزغ في الأفق . من فضلك شغل لي موسيقى .

كنت أسمعه غير مصدق :

- سعدون أنت .

بدأ سعدون يرقص على أنغام الموسيقى لأول مرة ثم توقـــف محدثا إياي :

- أشعر أن شيئا قد تغير داخل كياني ، كأنني ولدت اليوم فقط ، أو أنني شخص آخر لا أعرفه ولكنني سعيد به .

عانقته بحرارة وأنا أقول بتأثر :

- حمدا لله على سلامتك يا سعدون . يا صديقي القديم . أقصد صديقي الجديد . أنت بالفعل ولدت اليوم فقط إنسانا جديدا كنت أراه فيك طيلة عمري دون أن أعثر له على أثر . كم تمنيته مضطر أن أخبرك بكل شيء الآن فهذا حقك ، وأرجو أن تسامحني .

قصصت على سعدون كل ما حدث وبعد أن انتهيت فوجئت به يجهش وهو يعانقني ويقول:

- لا أدري كيف أشكرك يا صديقي . ليتك فعلت معي هذا من زمن ، فالحياة ليست أرقاما وحسابات فقط . هناك أشياء أخرى أكثر قيمة وفائدة .

ثم جفف دموعه وأردف :

- تبا لتجار هذا الزمان وسماسرته الذين صار كل شيء لديهم قابلاً للبيع . صدقني أنا لست كذلك لكنهم هم الذين دفعوني للسير في هذا الطريق . من أجل ذلك سأنتقم منهم جميعا . سآتي بهم إلى هنا لتغير خلاياهم وتقضي على نفوسهم المريضة الجشعة .

برقت عيني ببريق النجاح والانتصار وأنا أقول مؤكدا بحماس:

- أجل . أحضرهم لي واحدا واحدا ودعنـــي أنتــزع خلايــاهم المادية القذرة لأزرع بدلا منها خلايا وديعـــة رقيقــة تشــعر بالجمال وتحس به .

عندئذ فوجئت بسعدون ينتفض في فراشه ويصيح وهو يهــز سبابته في وجهي :

- ولكن لا تنس عمولتي ٤٠ % من تكاليف كل عملية يا ويزا .

الخلايا الغاضبة

تعسا لرجل تؤرقه كرامته ، يظل يغلي ويفور كالقــدر حتــى يموت كمدا .. كانت جدته رحمها الله كثيرا ما تقول لهم عنه " لا تثيروا غضب هذا الصبي ، فهو عصبي المزاج ، ابــن ســبعة ، دمه فائر دائما "

وهذا حقيقي ، فما أن يثيره أحد حتى يحمر وجهه مــن شــدة الغضب وتلوح في صفحته بثور ودمامل وخراريج لا تــزول إلا بعد أن يهدأ تماما ، قديما كان يأخذ حقه بيديه ، أما اليوم فلم تعــد تفلح الأيدي سوى للتعبير عن الرفض الصامت والشجب المهين ، فقد كان خصمه أمامه ندا له يعرفه جيدا ويعرف كيف يأخذ حقــه منه ، أما اليوم فقد صار الخصم ماردا عملاقا ، وحشا كاســرا ، صورة حقيقية لكائن خرافي لم نكن نراه ولا نسمع عنــه إلا فــي حكايات الجدات .

ليته يصير نارا تحرق ، بارودا يتفجر ، ذرات تتشظر .. ما هذا الأتون الذي يستعر بداخله ليشمل أنحاء جسده .. سكاكين تقطع في جسمه ، البثور والدمامل ملأت وجهه كله حتى صار أشبه بمريض الجدري وتسللت لتملأ مناطق أخرى في جسده ، على بطنه وصدره وخلف ظهره وأسفل إبطيه كالحيوان الأجرب . عشرات الانتفاخات تنتشر على جلده كالبراكين الثائرة ، حاول أن يلمسها بيده ويضغط عليها بأنامله ، مركز الانتفاخ أسفل الجلد فيما يشبه كرة صغيرة تجري تحت إصبعه لتعود إلى مكانها ثانية.

ما هذا الطفح البني الذي يبرز من قمة البثور ؟ يلمسه بيده ، يا للكارثة .. الطفح مادة كاوية ألهبت إصبعه وأصابته باحمرار شديد . ما الذي يحدث في جسده ؟ هل أورام سرطانية بدأت تنتشر في جسده .

تمدد أمام الطبيب الذي راح يفحص البثور والانتفاخات المنتشرة في أنحاء متفرقة من جسدهِ وقد بدا على وجهه الاهتمام والجد .. ابتدره قائلا :

- متى لاحظت ظهور هذه البثور ؟
- منذ وقت طويل بدأت عن طريق هرش شديد لكنها لم تكن بهذه الصورة المخيفة ..

أومأ الطبيب وهو يراقب بدهشة ملابسه الداخلية وقد تهـرأت عند مواضع ملامستها لهذه البثـور ، وراح يأخـذ عينـات مـن الإفرازات اللزجة التي تلفظها هـذه البثـور لتحليلهـا ، ازدادت دهشته عندما سقطت نقطة منها على معطفـه الطبـي الأبـيض ليحدث فيه ثقبا فأسرع بخلعه قبل أن تصل إلى جسده ..

مال على زميله محدثا إياه :

- حالة فريدة يا دكتور سامي ، نوع غريب من السرطان يفـرز مادة كاوية مذيبة ..

رد زميله وهو يفحص تحـت الميكروسـكوب الإليكترونـي مكونات المادة الغريبة :

- الأغرب يا دكتور فريد أن الخلايا المصابة سرعان ما تنمـو وتنتفخ وتتضخم حتى تصل إلى حد معين ، فتتفجر مخلفة هذه الإفرازات الفتاكة ..

أومأ الدكتور فريد وهو يقول محدثا الدكتور سـامي بصـوت خفيض :

- لابد من إجراء الحجر الصحي على هذا الرجل وعزله تمامـا حتى نجد علاجا مناسبا له ، فلا أحد يدري ما الذي يمكـن أن يسببه هذا الرجل لو ترك طليقا . إنه بمثابـة قنبلـة موقوتـة شديدة التدمير .

أجل قنبلة موقوتة لابد أن تنفجر في أي لحظة ، فهـو يعلـم علته جيدا بالرغم من التكتم الشديد الذي يفرض عليه مـن قبـل الأطباء ، مات أبوه متأثرا بهذا المرض اللعين ، كان رحمـه الله مرحا بشوشا لا يلقي بالا للهموم ، ما أن يوجد في جمـع حتـى يشيع في المجلس جوا من الفكاهة والضحك ، حتى وقع ما قلبـه رأسا على عقب .. انتزعوا أرضه بحجة إقامة طريـق مكانهـا ، هاج وماج وثار ورفع قضايا وأخيرا سقط الرجل طريح الفـراش .. همس الطبيب في أذنه : " تحملوا .. الوالد مصـاب بـالمرض الخبيث " ..

أدرك يومها على الفور أن السـر فـي الخلايـا الغاضـبة ، فالخلايا لا تستطيع كبح غضبها وإذا غضبت لا تعرف الصمت .. تعبر عما بداخلها في صراحة ووضوح وتخـرج مـن مكمنهـا منتفضة ثائرة رافضة كل شيء ..

إلى متى سيظل حبيس تلك الحجرة الضيقة في مبنى الحجـر الصحي ، مرت أسابيع وهو قابع في هذا المكان يحقنونه بما لديهم من كيماوي ، ويسلطون على جسده ما توافر مـن أشـعات فمـا برأت بثوره ولا قلت آلامه ، بل على العكس تفشت فـي جسـده كالوباء ، بينما وقف الأطباء ينظرون إليه عـاجزين كـأنهم فـي انتظار أن يسلم الروح كي يمارسون طقوسهم المعتادة عليه مـن

حرق مخلفاته حتى لا ينتشر المرض الغريب ، وتشـــريح جثتـــه والتمثيل بها لمعرفة أسباب المرض ، ويتحول إلى حالة تتحـــدث عنها كل وسائل الإعلام ليل نهار ، ويصبح علما في قبره ، بعـــد أن كان نكرة وهو على قيد الحياة .

لم يعد قادرا على البقاء لحظة واحدة في هذا المكـــان ضـــاق ذرعا به ، لابد من الخروج من هنا بأي شكل ، فالقنبلة ســـتنفجر إن عاجلا أو آجلا ، وينبغي أن تنفجر في صانعيها ، فهم وحـــدهم الذين يستحقونها ..

كانت دهشة الأطباء بالغة عندما اكتشفوا اختفـــاء الرجـــل ذي الخلايا الغاضبة ، كما أطلقوا عليه ، وبدأت عمليات البحث عنـــه تتخذ أشكالا عدة من تحذير المواطنين وإبلاغ رجـــال الشـــرطة ، ونشر صوره في الجرائد وعلى شاشات التلفاز ، وفرض جـــوائز مجزية لمن يساعد في العثور عليه ، كأنه مجـــرم خـــارج عـــن القانون وليس الضحية . ذهبت كل هذه المحاولات للعثور عليـــه سدى ، كأن الأرض انشقت وابتلعته ، وكما توقع الأطبـــاء ، بـــدأ يتوافد على المستشفيات أعداد كبيرة تشكو من نفس الأعـــراض ، وبالرغم من أن الجميع أكدوا أن هذه الأعراض يشكون منها قبـــل هروب الرجل ذي الخلايا الغاضبة ، لكنه ظل هـــو المـــتهم الأول عن تسريب هذه الخلايا إلى الناس جميعا .

بينما الطبيب المعالج يشاهد التلفاز استرعى انتباهه خبر غريب جعل الدماء تصعد إلى رأسه دفعة واحدة :
" رجل غريب ينفجر داخل مقهى في تل أبيب موقعا العشرات من الإسرائيليين تحللت أجسادهم بفعل مادة كاوية شديدة التأثير خرجت منه "

أطلق الطبيب تنهده عميقة كي يستوعب الخبر ، بينما كانت أصابعه تحك وجهه ، وتتحسس بعض البثور والانتفاخات التي بدأت تنتشر في أنحاء جسده ..

المتحور

لا أذكر متى وأين التقيت به لأول مرة ، لكنني واثق من أنني رأيته مرات عديدة قبل الآن ولكن في صور مختلفة ، وفـــي كـــل مرة أراه فيها لا أدري سر ذلك الشعور الذي يعتريني ، تتملكنـــي رعدة تشمل أنحاء جسدي ، عرق كثيف يتفصـــد مـــن ثنايـــاي ، غثيان ودوار وصداع ، ولا تفارقني الأعراض قبـــل يـــومين أو ثلاثة ..

ها هو يظهر لي مرة أخرى ، هذه المرة داخل المصعد ، أنـــا وهو فحسب ، بادرني بابتسامة غامضـــة كأنـــه يعرفنـــي ، تلـــك الابتسامة الباهتة الثابتة التي لا معنى لها ولا تريحك على أية حال ، قلما يتكلم ، وكثيرا ما يستبدل كلماته بهمهمة غامضة أو ضحكة متهكمة .. الأعراض بدأت تداهمني من جديد ، لم أستطع الصمود أمامه والنظر إلى وجهه طويلا ، أشعر كأن روحي تسحب منـــي

والأرض تميد بي ، كأنه شفط كل ما تبقـى مـن هـواء داخـل المصعد بل من الدنيا بأسرها ..

بالطبع لا أتحدث عن كائن خرافي أتى من الفضاء الخارجي ، ولا عن شخصية أسطورية قذفت بها آلة الزمن من عصر بائـد ، ولا عن دميم يخيف ببشـاعته ذوي القلـوب الضـعيفة كأحـدب نوتردام ، إنما أتحدث عن إنسان عادي تماما وهذا سر غرابته ..

كنت أظنه زائرا عابرا جاء لعمل ما داخل المؤسسة ، فإذا بي أكتشف أنه موظف فيها .. لم يدر بيننا أي حـوار غيـر إيمـاءة صامتة أو حروف ميتة ، والغريب أن يتفق الجميع فـي الشـعور بعدم الارتياح لهذا الموظف الجديد ،أصبح وجوده بيننا حملا ثقيلا لا نستطيع احتماله حتى أننا تحدثنا مع المدير العام لكي ينقله إلـى أي قسم آخر فأخبرنا بأنه ليس في قانون العاملين بند يجيـز نقـل موظف لأننا لا نرتاح إليه ونصحنا ألا نصطدم به، فتجنبناه .

بالطبع كان يشعر بهذا التجاهل وعدم الاهتمام الذي عاملنـاه بهما منذ اليوم الأول له في المؤسسة ، فانزوى في ركن صـامتا يعد الساعات حتى ينتهي اليوم سريعا ، كثيرا ما كنت أشعر أنـه يبكي في صمت ويحترق من الداخل دون أن يحاول إظهار ذلـك لنا ..

مر أسبوع تغيب فيه عن العمل ولم يشأ أن يبلغ أحدا بغيابه ، وفي اليوم الثامن فوجئنا به يجلس على مكتبه في ركنه القصي المنبوذ ، بادرناه بتحية باردة مبتورة فردها بفتور وقد لاحظت أنه كان يخفي فمه بيديه فأدركت أنه ربما خلع ضرسا أو أن ألما بأسنانه ، لكن فجأة لمحت شيئا يبرز بوضوح من فمه عندما دققت النظر رأيت ما جعل الدماء تتجمد في عروقي ورأسي يدور ..

نابان .. أجل نابان معقوفان برزا على جانبي فمه كأنياب النمر .. من يكون هذا الرجل الذي يجلس بيننا ؟ شيطان متخف في مظاهر آدمية ، أم وحش مفترس لابد داخل إنسان في انتظار اللحظة المناسبة للانقضاض علينا .. وسرعان ما انتشر خبر الرجل ذي الأنياب مما دفع فضول بعض زملاء الأقسام الأخرى إلى المجيء لمشاهدته عن بعد ..

ظل منكسا رأسه في صمت يراقب تصرفات الزملاء ونظراتهم المريبة بطرف عينيه ، لكنني لاحظت دموعا تسيل على وجنتيه ووجهه يزداد تجهما وحزنا ، وبدأت أشفق عليه .. مر أسبوع آخر تغيب فيه ثانية ولم يكن هناك حديث إلا عن الرجل ذي الأنياب ، عندما جاء كانت أنيابه قد أعلنت عن نفسها بوضوح خرجت من فمه مؤكدة وجودها ، معلنة عن كائن جديد يحمل بين صفات البشر وصفات الحيوانات ..

رحنا نحملق فيه بدهشة نتفرسه بعمق نراقب تصرفاته بوجـل ونظرات عينيه ، كمن يتوقع لحظة الانقضاض علـى أي منـا ، نحاول اكتشاف شيء جديد غير الأنياب ، أجل هناك شيء جديد ، كان يلف يديه بالشاش لكنني استطعت أن أرى منها مخالب حـادة مقوسة ، لم أكن وحدي الذي رأيتها ، فقد رآها الجميع وانـدفعوا من الحجرة مذعورين وهم يصيحون في فـزع ورعـب ، وراح البعض يشكو للمدير الرجل ذا الأنياب والمخالب الذي لـم يفعـل شيئا سوى أن خرجت له أنياب ومخالب ، وسرعان مـا امـتلأت الحجرة بعدسات المصورين وكاميرات التليفزيـون ، بينمـا راح المخلوق الغامض يحاول إخفاء نفسه قدر الإمكـان وهـو يبكـي بشكل هستيري ويصيح :

- حرام عليكم . دعوني في حالي .

زاد إشفاقي عليه وتحولت كراهيتي له وانزعاجي منـه إلـى حب ، بتردد ذهبت إليه رحت أربت على كتفه مواسيا ، فنظر لي بعينين حمراوين وصاح :

- لماذا لم تهرب أنت أيضا ؟ ألست وحشا مخيفـا ، ألا تخشـى على حياتك .

قلت له مداعبا :

- اطمئن ، أنا لا تخيفني المخالب والأنياب .

هز كتفيه في تهكم وهو يقول :

- ما خفي كان أعظم .

ثم رفع من على رأسه الكاب الذي يرتديه دائما ليظهر علـــى جانبي رأسه نتوءان بارزان كقرني الثور ، وكشف عن ذراعيـــه ليريني جلده الذي اتخذ شكل الحراشيف .

ارتعدت فرائسي وكأنني أمام حاو ماهر وقبل أن يكمل خلـــع ملابسه ليريني ذيله الذي تكون خلفه رحت أسأله في وجل :

- ما حكايتك ؟

وقف في منتصف الحجرة وراح يقول بشكل مأساوي :

- الظلم .. الظلم يفعل أكثر من هذا .
- الظلم ؟
- أجل . لا تحسب أن خلايانا في منأى عما يدور بعالمنا . إنها تحس وتتفاعل وتثور وتغضب ، الظلم الواقع علينا هو الـــذي فجر هذه الثورة التي تراها أمامك ، أنا يا صديقي آخر نسخة بشرية تم تعديلها وتطويرها لتلاءم التغييرات التي حدثت على سطح كوكبنا في الآونة الأخيرة ، فبعد التفجيرات النووية التي أزالت أجزاء كبيرة من عالمنا ، وبعد أن أصبح تحكم العـــالم قوة وحيدة ظالمة تتحكم في العباد فتبيد المدن وتمحوها مـــن على الخارطات مستخدمة كل الأســـلحة المشـــروعة وغيـــر

المشروعة ، كان من بينها ذلك السلاح الذي فجر تلك الخلايا الحيوانية الكامنة فينا وجعلها تظهر ..

قاطعته :

- تقصد أن هناك آخرين ظهرت عليهم تلك الأعراض ؟
- بالتأكيد .. ما نحن إلا عينة عشوائية لتجربة حقيرة جرت في معمل الحياة الكبير ، وها هي نتائجها البشعة بـدأت تظهـر ، وقريبا ستجد أمامك أنواعا من البشر الحيوانيين لتتحول حياتنا إلى غابة حقيقية . قل إنها تعبير تلقائي لخلايانـا عـن حالـة الإحباط التي أصابت البشر جميعا وإحساسهم بالضعف والظلم . هذا هو الذي شجع هذه الخلايا المفترسة لكي تنمو لتعـوض حالة الانكسار والتخاذل التي أصابت الناس ، كـأن الطبيعـة أرادت أن تعاقبنا فلطخت أجسادنا بتلك المظـاهر الحيوانيـة القميئة .

رحت أقول مؤكدا :

- لكنني لم تظهر علي هذه الأعراض بعد .

ضحك وهو يقترب مني ويقول في ثقة :

- وما يدريك ، لقد بدأت تظهر بالفعل ، انظـر إلـى انحـراف عينيك لتتخذ شكل عيون الثعالب ، وأذنيـك التـي اسـتطالت وتتحركان إلى أعلى وأسفل كما تفعل الأرانب ...

بدأ الانزعاج يدب في ورحت أبحث عن مـرآة لأتأكـد ممـا يقوله بينما راح يكمل :

- الأعراض قادمة يا صديقي لا محالة ، إذا لـم تظهـر اليـوم ستظهر غدا حتما ، وعليك أن تختار الحيوان الذي يمكنك أن تعيش داخله في هذه الحياة . فإما أن تكون أسدا أو تظل أرنبا

صرخت وأنا أنظر في المرآة وقد بدا لي صدق ما يقوله :

- لكنني لا أستطيع أن أعيش سوى إنسان .

رد بأسى :

- ليس الأمر بمقدوري ولا بمقدورك ، ينبغي علينـا أن نسـلم بالأمر الواقع ونعيش بتلك الصفات الحيوانية الجديدة بدلا من أن نهاجمها ، لأنك لو صرت وحدك إنسانا لـيس بعيـدا أن يفترسك الآخرون .

و قبل أن ينهي لقاءه معي ويخرج من الحجرة بلا رجعة قال:

- خير لنا أن نلقي بفراء الأرانب التي غطتنا لسـنوات عديـدة ونحن بشر ونستبدل بها أنياب الأسود ومخالب النمرة .

***

مر أسبوع لم أذهب فيه إلى العمل ، كيف أخرج مـن البيـت وأنا في هذه الحالة ، فإما أن أكون أضحوكة بين النـاس ومثـارا

لتعليقاتهم السخيفة ونكاتهم السمجة أو أكون مبعثا لدهشتهم وعجبهم وربما أيضا لفزعهم ورعبهم .. رحت أتساءل ..

هل يمكن أن يكتسب الإنسان صفات حيوانية جديدة ، أم أن خلايانا تحتوى على تلك الصفات منذ زمن بعيد ووجدت الظروف المواتية لها لكي تظهر الآن .. بالتأكيد بداخل كل منا حيوان خفي ينتظر اللحظة المناسبة لكي يخرج من عرينه البشري الذي يختبئ فيه طيلة عمره وما أنسب هذا الوقت الذي أصبح الناس في كل مكان تحكمهم قوانين الغابة ومواثيق الافتراس

انتبهت فجأة على صيحات مدوية ، عندما أطللت من النافذة فوجئت بأعداد لا حصر لها راحوا يصيحون معا في صوت واحد لتتحول صيحاتهم إلى زئير مخيف ارتج له المكان ، كأن قطيعا من الأسود يزأر في نفس واحد ، تدفعهم قوة واحدة يعلنون رفضهم ، يكشرون عن أنيابهم ، يضربون الهواء بمخالبهم ، ربما يجتمعون للمرة الأولى ، فرقتهم إنسانيتهم الغابرة ونجح الحيوان الذي بداخلهم في أن يجمع شملهم ويدفعهم في الطريق الذي ينبغي أن يسلكوه . انطلقت بكل قوتي نحوهم وأنا أردد معهم :

- كان يعيش هنا إنسان .

صائد الأقمار

كان من الممكن ألا أصدق لولا أن محـــدثي الـــدكتور أســـامة الكاشف الخبير بوكالة أبحاث الفضاء الدولية أكد لي وهـــو يقســـم أغلظ الأيمان أن ما يقوله هو الصدق، ثم أضاف وهـــو يـــذكرني بأحداث مماثلة وقعت منذ بضعة أعوام:

- لعلك ما زلت تذكر يا دكتور صبري بحثي الذي قرأته عليـــك منذ أكثر من عشرين عاما وتنبأت فيه بأن خللا كيميائيا سوف يطرأ على جو الأرض قد يترتب عليه إحداث فجوات وثقوب في الغلاف الجوي، يومها أخذت تجادل وتحـــاور وتقـــول إن هناك معدلات ثابتة تتحكم في جميع العناصر المكونة لكوكبنا وأي نقص في عنصر سيتبعه على الفور زيادة فـــي عنصـــر بديل يحل محله، وبعدها بشهور قليلـــة أعلـــن العلمـــاء عـــن اكتشاف ثقب الأوزون.

قاطعته:

- هذا لا يعني أن جميع نظرياتك صحيحة يا دكتور، فلو أصاب حدسك مرة قد يخيب الأخرى.

أسرع يعقب كأنه لا يسمعني:

- والشق الكبير الذي يلف الكرة الأرضية مختبئا تحت قيعان البحار والمحيطات شاطرا إياها إلى نصفين، ألم أحدثك عنه أنت بالذات ؟

- الشق موجود منذ زمن، وقد ألمح إليه العديد من الباحثين قبلك يا دكتور أسامة.

ابتسم بمرارة وهو ينظر لي كأنه يفحمني:

- والنيزك الضخم الذي ارتطم بكرتنا الأرضية جالبا معه عواصف وزلازل وبراكين، انتشرت في أنحاء متفرقة من العالم، ألم أنبئك بقدومه قبلها بشهور.

أسقط في يدي، فرحت أتجه نحو النافذة وأنا أنظر إلى السماء محدثا نفسي بصوت مسموع:

- أهذا معقول ؟ أبعد مئات الملايين من السنين استمر فيها القمر تابعا أمينا للأرض يدور حولها في ثبات وانتظام، نتطلع إلى وجهه المضيء في الليالي الصافية، تتعلق به عيون المحبين وقلوبهم في وله وشوق، مثيرا قرائح الشعراء

فيكتبون فيه القصائد والأشعار. يأتي اليوم الذي يختفي فيه القمر من السماء ولا يعود له وجود

ووجدت الدكتور أسامة يقف خلفي ويعقب بنبرة حزينة:

- أجل. سيختفي القمر إلى الأبد ولن يبقى منه سوى تلك الصور الجميلة المحفورة في أذهاننا، ونطل بأعيننا نحو السماء البليدة الموحشة وقد هجرها النور إلا من ثقوب صغيرة غائرة صنعتها نجوم متناثرة هنا وهناك ونردد في أسى، كان هناك قمر !

رحت أسأله وأنا أعود إلى مقعدي:

- كيف يحدث هذا ولماذا ؟

جلس قبالتي ثم أجاب وهو يهز رأسه مؤكدا:

- مذنب جبار سيزور مجرتنا قريبا، سيتجه نحو الأرض ويحيط غباره الكثيف بالقمر ثم يأسره في قبضة جاذبيته وينطلق به مبتعدا في أعماق الفضاء.

أغمضت عيني لأستوعب حجم الكارثة التي ستترتب على اختطاف قمر، بينما مضى الدكتور أسامة الكاشف يتحدث عن ذلك المذنب القرصان ذي النواة المغناطيسية الرهيبة الذي اعتاد زيارة مجرة سكة التبانة على فترات معينة كل عدة مئات من السنين، وفي كل مرة يجذب معه أحد أقمار المجموعة الشمسية

ويفر بعيدا، ففي المرة السابقة، أي ما يقرب من ثمانمائة سنة اختطف أحد أقمار الكوكب نبتون، وفي المرة التي قبلها استولى على تابع للمشتري ...

راح أسامة يلقي على مسامعي صحيفة سوابق هذا المذنب المجرم العتيد، لكنني لم أكن أسمعه تماما، فعقلي لا يستطيع أن يتصور أن الخطف والسرقة والقرصنة يمكن أن تلصق بمذنب وهي صفة اتصف بها الإنسان دون غيره، تطلعت إليه بعينين يائستين يتخايل فيهما أهداب الأمل والرجاء :

- ألا يمكن أن تكون مخطئا يا دكتور ؟
- للأسف ما قلته لك ليس حدسا أو تخمينا وإنما حقيقة واقعة علينا جميعا أن نواجهها.

ثم عقب وهو يهز رأسه في أسى:

- الطوفان قادم لا محالة، فلا جبل عاصم ولا بحر حام.

اندفعت بسذاجة الغريق اليائس الذي يبحث عن قشة لكي يتعلق بها:

- فلنترك المجموعة الشمسية بكواكبها وأقمارها، لقد تمكنا من اكتشاف مجموعات شمسية أخرى تقع على أطراف مجرتنا سكة التبانة. لماذا لا نصل إليها ونستعمر كوكبا مناسبا.أو نبحث عن مجرة أخرى أكثر أمانا.

لمحت دموعا تتجمع في مقلتيه وهو يوصد في وجهـي آخـر أبواب الأمل:

- مع الأسف ما سيصيب القمر وبالتبعية الأرض قد يصـيب أي كوكب آخر في أي مجموعة شمسية بالمجرة.ثـم إن أقـرب مجرة إلينا تبعد عنا مئة سنة ضوئية، أين لك بسفينة الفضـاء الخرافية التي ستنطلق بنا بسرعة الضوء لمدة مئة عام.

شعرت بحلقات زحل تحلق حول رأسي مصيبة إيـاي بـدوار فأغمضت عيني في إعياء وأنا أردد:

- الكارثة واقعة إذن.

لدهشتي فوجئت بالدكتور أسامة الكاشف الذي كان يتحدث طول الوقت بثبات العلماء ينهار على أقرب مقعد ويجهش:

- صدقني يا صبري أنا لست خائفا على حياتي، فعالمنـا الـذي يضج بالعديد من الكوارث والأوبئة تجعلني متوقعا أيـا منهـا في أي لحظة، لكنني حزين أن تنتهي البشرية هـذه النهايـة المأساوية في غفلة منا، فالحياة بلا شك جميلة وأجمل ما فيهـا ألا نتوقع نهايتها. فما بالك والنهاية المفزعة تتربص بنا تنتظر اللحظة المواتية لتنقض علينا مخلفة الدمار والفناء لكل شـيء جميل على الأرض.

سكت قليلا ليبتلع ريقه ثم عقب:

- أنت يا صبري فضلا عن كونك خبير بالموضوعات العلمية والتكنولوجية فأنت صحفي ناجح وكاتب مرموق. الناس تجتمع حول قلمك، ومن يستطع أن يجمع الناس على فكرة واحدة يمكنه إيجاد الخلاص لهم ؟
- دعك من هذه الأفكار الفلسفية وأخبرني كيف نجد الخلاص لهم. أ لست أنت العالم، كما ترى الخطر وتتوقعه تعرف كيف يكون الحل وأين ؟
- صدقني يا صبري. حينما يعجز العالم عن إيجاد الحل يشعر بقمة جهله..

أتم جملته، ثم تركني وخرج مندفعا وهو ينتحب. كان بكاء الدكتور أسامة الكاشف بمثابة ناقوس خطر راح يطن في أذني طنينا مزعجا جعل الدماء تصعد إلى رأسي دفعة واحدة.

صدق حدس الدكتور أسامة الكاشف، فلم يمض سوى بضعة أسابيع على حديثه معي حتى كان خبر زيارة المذنب العملاق يتصدر نشرات الأخبار. في البداية نظر الناس إلى الخبر بلا مبالاة كأن الأمر لا يعنيهم، فماذا يعني لهم اختطاف قمر. بل إن الحدث عد بالنسبة لهم أهون بكثير من اختطاف رغيف من الخبز، لكن بمرور الوقت بدأ الحدث يزداد أهمية حاملا معه الرعب والفزع بعد أن مثل اختطاف القمر خطورة على هيكل الحياة على

سطح الأرض. فأية كارثة هذه التي ستحل بقمرنا الوحيد، وما سيتبع ذلك من كوارث لا يعلم مداها إلا الله ستحل بالتبعية على كوكب الأرض.

سرعان ما انتصبت نحو السماء عدة رؤوس نووية على أهبة الاستعداد للانطلاق في اتجاه هذا المذنب الجبار بمجرد دخوله مجرة سكة التبانة لحمله على تغيير اتجاهه، وبدأت أجهزة الرصد الإليكترونية تقتفي أثره في الفضاء لعلها تتعرف على بصماته وتتعامل معه.

لم أكن مقتنعا تماما بالإجراءات الساذجة التي اتخذت للتعامل مع المذنب، وكأن الأمر يتعلق بمجرم خارج عن القانون، ولكن هذه هي عادتنا دائما في التعامل مع كوارث من هذا النوع، فبعد أن يتهم بعضنا بعضا بالتقصير والإهمال والتخلي عن المسئولية نتصرف بدون وعي أو إدراك لطبيعة المشكلة وحجم الكارثة، فإرسال صواريخ نووية نحو المذنب قد يؤدي إلى ابتلاع المذنب للمخزون النووي لتلك الصواريخ داخل نواته المغناطيسية ويتجه بقوته الجديدة إلى الأرض ليحدث بها ما لا يحمد عقباه.

بدأت أجهزة الرصد الراديوية والتليسكوبات الإليكترونية وغير الإليكترونية تمسح الفضاء مسحا بحثا عن لص الأقمار هذا، فما لا تكشفه بؤرة العين تتلمسه حتما الإليكترونات والدقائق والأجسام

المجهرية.. حتى لمحناه وتعرفنا عليه ورأيناه بأمهات عيوننا بالرغم من بعده الشاسع وقدرته الفائقة على المناورة والتخفي ككل المجرمين يظهر حينا ويختفي حينا، يندس وسط مجموعة نجمية فنخاله نجما تابعا لهذه المجموعة، أو يختبئ خلف كوكب بعيد ضاغطا ذيله الطويل فنحسبه قمرا لهذا الكوكب..

وعقدت عشرات المؤتمرات واللقاءات الصحفية التي لم يكن لها سوى حديث وحيد بطله صائد الأقمار، وتباينت الآراء والأفكار من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار كل حسب هواه ومبتغاه، فمنهم من قال إن صائد الأقمار ما هو إلا سفينة فضاء عملاقة مرسلة من كوكب مجهول يقع على أطراف مجرتنا بهدف تدمير كوكب الأرض، ومنهم من أفتى بأنه غضب من الله بعد أن استشرى الظلم والشر في كل مكان.

وقد حضرت جميع هذه المؤتمرات ولا سيما ذلك المؤتمر الذي أعد خصيصا للتعامل مع الحدث بعقلانية وموضوعية، فإذا به يخرج عن كل سمات العقلانية والموضوعية، وجاءت جلستي مع الأسف بجوار البروفسور المصري العالمي هارون شكران، وهو في نفس الوقت جاري في السكن الذي أقطن فيه، كنا قديما أصدقاء، لكن فجأة نمت بيننا شحناء لا أدري لها سببا.

فالبروفسور الكبير اعتاد أن يخرج علينا بحلول معلبة

ومستوردة من الخارج حيث يعيش منذ فترة شـــبابه، ألـــيس هـــو صاحب الاقتراح الشهير بعدم جدوى الكفاح والمقاومة من أجــل تحرير الأرض المغتصبة، بعد نظام العولمـــة الجديـــد وبعـــد أن أصبح العالم قرية صغيرة، وأنه ينبغي على الشعوب التي تنـــادي بالاستقلال والحرية أن تتخلى عن أفكارها التحررية وتنصهر مع الحضارات الأخرى فلماذا القتال وإزهاق الأرواح من أجل وطـــن والأرض كلها وطن للجميع.

وها هو اليوم يخرج علينا بنظرية جديدة، فقد انبرى رافعا يـــده طالبا الكلمة وراح يدلي بفكرته الجهنمية:

- أيها السادة. حقيقة أنا أرى أنكم تحملون الأمـــور أكثـــر ممـــا ينبغي وتشغلون رؤوسكم بتلك الكتلـــة الصـــخرية الضـــخمة المسماة بالقمر، فليذهب القمر إلى الجحيم ودعونا نفكـــر الآن في قمر جديد نصنعه بأيدينا، قمر لا يغيب عنا ليل نهار ينيـــر أرضنا صباح مساء ويقوم بكافة الأعمال التي كان يقوم بهـــا القمر القديم، بل ونخزن فيه أعمالا أخرى ينبغي القيام بها تبعا لمتغيرات العصر القادم.

وراح البروفسور ينحني وسط تصفيق هادر ثم جلـــس مزهـــوا باقتراحه، اقتربت منه وهمست:

- حقيقة يا دكتور أفكارك تصلح لكل زمان ومكان أهنئك عليها،

أحمد الله أن هذه الأفكار لا تخرج عن حيز القاعات والمؤتمرات وإلا حلت بنا الكوارث.

ثم تركته ومشيت بينما كان يسدد لي نظرات الحنق والغيظ..

عندما عدت إلى البيت بادرتني طفلتي أمل ذات الخمس سنوات بينما كانت ابتسامة تلهو على ثغرها البريء:[1]

- بابي.. مالي أراك مهموما مكدرا على غير عادتك بعد أن كنت تملأ البيت ضحكات، فلم تعد تلاعبني مثلما كنت تفعل معي،

عبثت بشعرها المسدل على جبهتها وقد سقطت دمعة ساخنة من عيني على وجهها المستدير كالقمر وقلت:

- لا شيء يا صغيرتي، بعض الأمور تشغلني قليلا وسأفرغ لك بعد الانتهاء منها.

ردت وهي ترنو بعينيها إلى وجهي لتتأكد من أن ما تراه في عيني هي حقا دموع بينما كان إبهامي يزيلها حتى لا ينكشف ضعفي أمامها:

- أليس ما يشغلك هو القمر ؟

كنت أظن أن هذه الأمور لم تصل إلى رأسها الصغير بعد، فآثرت أن أنأى بها بعيدا عن هذه المعضلات التي يصعب علينا نحن الكبار إيجاد حل لها، ووجدتني أقول لها بعينين غير صامدتين

فضحت ضعفي أمام ابنتي:

- أجل يا أمل سيختفي القمر سيختفي إلى الأبد. وسيختفي معـــه كل شيء جميل.

ردت بعدم اكتراث كأنها لا تستطيع تصديق الأمر:

- سمعت هذا الكلام مرارا لكنني لا أدري كيف يمكن أن يحدث ذلك ؟

جلست القرفصاء لأكون مواجها لها لعـل رأسـها الصـغير الخالي من التعقيدات يوحي لي بما عجز عقلي عن التنبؤ بـه أو التفكير فيه:

- أمل. ما الذي يمكن أن تفعليه لو علمت أن لصا جاء ليسـرق عروستك ؟

أجابت سريعا وبتلقائية مدهشة:

- من الذي يستطيع الاستيلاء على عروستي وأنا أضعها أسـفل وسادتي.

- أقصد لو كانت عروستك هذه شيئا كبيرا كهذا البيـت الـذي نعيش فيه مثلا أو أكبر كثيرا بحيث لا يمكن وضـعه تحـت الوسادة.

هرشت في رأسها مفكرة ثم قالت:

- بالتأكيد أنت تقصد القمر، في هذه الحالة إذن يجب علينـا أن

نربط القمر بالحبال ونثبت الحبال بالأرض بقوة فلا يستطيع أحد خطفه.

- مستحيل يا أمل، فالقمر بعيد بعيد، أين لنا بالحبال التي تصل بيننا وبينه خاصة وأن حبال الأرض ضعيفة واهية لم تستطع حتى أن تربط سكان الأرض بعضهم ببعض.

عبثت بغمازة أسفل ذقنها مستغرقة في التفكير ثم صاحت :

– ليس أمامنا إذن سوى أن نسرع نحن باختطاف القمر ونضعه في مكان ما على الأرض ، فلن يجرؤ لص على الاقتراب منه وهو بين أيدينا .

ثم ضحكت وانطلقت لتلهو في الحديقة بينما كنت أفكر حقيقة فيما أوحت به الصغيرة، ولم لا ؟ . فالقمر لم يكن أبدا هو تلك الكتلة الصخرية الهائلة التي تزين السماء في الليالي الصافية لنرنو إليها حالمين ونحن نفكر في الحبيب الغائب، بينما أقرب جسم فضائي منا غائب عنا وعن أحلامنا. نحن الذين أهملنا القمر بأيدينا حتى أصبح عرضة للضياع والسطو.

ذات صباح استيقظ الناس في كل مكان على نقطة داكنة قميئة خرجت إليهم لتشوه وجه السماء وتتحرك في مدار القمر.. تنتظر أن تغفل عيوننا عنه لتنقض عليه ملتهمة إياه لم تكن هذه النقطة سوى المذنب اللص " صائد الأقمار "..

بالرغم من أنني كنت متوقعا هذا الحدث منذ فترة طويلة خاصة بعد تحذير الدكتور أسامة الكاشف، فقد أذهلني الحدث مثلما أذهـل الجميع وصرت مثلهم أترقب كارثة اختطاف القمر كالأمر الواقـع الذي لابد منه وبات حديث الناس في كل مكان " ماذا بعد اختفـاء القمر ؟ " حتى إننا صرنا نستقبل هلالـه مثلمـا نـودع محاقـه، بالدموع والحسرات وضرب الأكـف ولطـم الخـدود والتهليـل والتكبير كعزيز حكم عليه بالإعدام، ونظل نتساءل في كـل مـرة يظهر فيها هل ستكون المرة الأخيرة التي يطل فيها علينا ؟ وعند محاقه يصبح السؤال ترى سيظهر ثانية أم أنه أفول بـلا عـودة. فتذبح الذبائح في كل مكان لقمر قد يذهب ولا يعود ..

لم يعد الأمر بمقـدورنا نحـن أهـل الأرض، فقـد كانـت الضرورة تدفعنا بإلحاح الغريق الباحث عن قشة للنجاة إلى أحـد مصيرين، إما وضع الأيدي على الخدود وندب الحظ والنصـيب في انتظار الكارثة الآتية لتجرفنا جميعا رغما عنـا فـي تيارهـا الهادر الذي لا يعرف الهوادة أو اللين لتأكلنا الحسـرة ويمضـغنا الندم.

أو أن نقاوم المستحيل ممثلا في هذا المذنب المارق الخارج عن قوانين الطبيعة ونواميس الكون بما لدينا من عقـول وإمكانيـات محدودة حقا حتى لو هلكنا فحسبنا أننا هلكنا ونحن نقاوم.

يا لها من نقطة قاتمة كئود تلك التي ترافق القمر أينما ذهب، لم تعد بحاجة إلى تليسكوبات دقيقة لمراقبتها ولا لمجاهر إليكترونية للتعرف عليها، أصبحت الآن واضحة للعيان، كل من يريد أن يراها ما عليه سوى أن يرفع عينيه إلى السماء .

ما زالت الفكرة المجنونة التي أوحت لي ابنتي بها تلح علي ، لا لن نأتي بالقمر على الأرض بل سنذهب نحن إليه . أعلم أنكم ستقولون عني مجنونا كما نعتني البروفسور العالمي هارون شكران ولكن لحسن الحظ أن الأفكار المجنونة كثيرا ما يكون لها مؤيدين وأنصار راحوا يحملون شعار الهجرة إلى القمر بهدف حمايته من هذا القرصان الفضائي غير عابئين بالمصير المجهول الذي يمكن أن يلقوه على سطح القمر .

كنا ننطلق في سفينة الفضاء العملاقة التي أعددناها لتحملنا إلى القمر وعيوننا ترقب بوجل صائد الأقمار وهو يقف متربصا تحيطه هالة من الغدر والخسة ، اليأس والرجاء يتسابقان إلى هناك كأنهما على موعد لعراك الموت والحياة ، القلوب تخفق والأجساد ترتعد ، لا أحد يستطيع أن يتخيل لحظة انقضاض المذنب على القمر لاختطافه .

تساؤلات عديدة كانت تصاحبنا أثناء اندفاعنا نحو القرص المنير الذي كان يكبر شيئا فشيئا كلما اقتربنا منه وتكبر معه تلك البقعة

القمينة الداكنة ..

- ألم يكن الأجدى لو اختطف المذنب القمر ونحن لسنا عليه ؟

أرد في هدوء :

- إن ما سيصيب القمر سيصيب الأرض بالتبعيـــة ، فباختفـــاء القمر ستختفي معه كل صور الحياة على سطح الأرض .
- وما الذي يمكن أن نفعله على قمر مهدد بالفناء ؟
- نفس الذي كنا سنفعله على الأرض في آخر أيامهـــا نغـــرس زرعا ونشيد بناء ونرفع شركا ونقتل عدوا .

بدأت السفينة تدخل غلاف القمر وراحت تهبط علـــى ربـــوة قمرية صغيرة وأخذ كل منا يحكـــم أجهـــزة التـــنفس والضـــغط والحرارة التي أتينا بها من الأرض وعندما وضعنا أقدامنا علـــى سطح القمر كانت النقطة المظلمة الكؤود قد اختفت وراح كل منـــا يعانق الآخر في لحظة انتصار نادرة وعندئذ بدأت الحيـــاة تـــدب على سطح القمر ..

بنج كلي

كان يتأمل الناس من حوله ، الدهشة والفزع يقودانه إلى جهة غير معلومة كأن قدمه سلكت مدينة مسحورة عبثت بهـــا عصــا ساحرة شريرة فطمست على عيونهم جالبة إليهم النوم والخـــدر . عيون مسبلة في استسلام تتبعها أقدام هزيلة على غيــر هـــدى . حاول إيقاظ أحدهم لكنه تجاوزنه دون أن يعيره اهتماما ، أو ربما لم يره على الإطلاق .. فسحابة النعاس العاتية تنساب في طغيــان كالليل البهيم .

لا يدري أيحسدهم على نعاسهم وخدرهم ويمني نفسه المتوثبة اليقظة بلحظة نعاس خاطفة ، أم يشفق عليهم لغفلتهم وغيابهم فـــي زمن لا مكان فيه للنائمين . فهو رجل كـــالزمن لا ينـــام ، الأرق والسهد صديقان حميمان لا يفارقانه أبدا .

تمدد أمام الطبيب النائم مثل بقية الناس ومضى يفحص ويدقق بين ثنايا وتجاويف رأسه من خلال شاشة جهاز الكمبيوتر ثم لوى شفتيه وهو يزوم ويقول بكلمات مبتورة :

- ورم سرطاني جديد ، هذه المرة في جدار المخ ..

هز رأسه في ثبات دون أن ينطق ، فقد أزال له نفس الطبيب أوراما عديدة نشبت في مواقع متفرقة من جسده تحملها جميعا ، تآلف مع وخز الإبر وهي تتسلل من مسامه ، شعر بحد المشرط وهو يمزق أنسجته وبالمقص يستأصل ما تفجر من خلايا متمردة نشطت فجأة كبراكين ثائرة .

ماذا بإمكانه أن يفعل الآن وحركة التمرد تصيب مخه عقله مركز التحكم الرئيسي الذي يدير شئون دولته الجسدية ؟

ألم شديد في ذراعه .. لعله من جراء حقنة التخدير الذي دسها الطبيب تمهيدا لإجراء الجراحة الدقيقة . خدر يسري في أوصاله ، تنميل يزحف على أطرافه يشمل أنحاء جسده ، رائحة غامضة تهيج أنفه ومقدمة رأسه وتدمع عينه كأن يدا خفية حانية تمتد أسفل جسده لتدعك خلاياه و أنسجته و أعضاءه ....و مع ذلك مازال يعي كل ما يدور حوله ....

الطبيب يحدق في وجهه دهشا ثم يصيح :

- هل أنت مدمن ؟

- لم أتعاط في حياتي أي نوع من المخدرات ، لا أعــرف لهــا طعما و لا رائحة و لا شكلا.
- هذه ثالث حقنة مورفين و مع ذلك ما زلــت يقظــا ...كيــف سنجري لك الجراحة؟

بادر الطبيب قائلا:

- لقد قلت لك يا دكتور لا داعي للبــنج الكلــي، يكفــي البــنج الموضعي كما جرى في العمليات السابقة .
- لا يمكن ،هذه الجراحة دقيقــة للغايــة ..تختلــف عــن كــل الجراحات السابقة علاوة على أن الورم حجمه كبير و يحتــل مكانا مهما من المخ لا بد من بنج كلي ...

أجاب وهو يهز رأسه في تصميم :

- أنا أعرف نفسي جيدا المخدر لا يؤثر في على الإطلاق .

صاح الطبيب وهو يعطيه جرعة إضافية من المخدر :

- اسمع لا تفكر في شيء محدد ، أترك نفسك على ســجيتها و سوف تنام حتما ...
- سأحاول يا دكتور....

قال ذلك وهو يغمض عينيه تنفيذا لتعليمــات الطبيــب الــذي سأله:

- هل تعاني من مشاكل خاصة مع الأسرة مثلا ، في العمل؟

انتفض في مكانه وهو يجيب مؤكدا نفي سؤال الطبيـــب كـــأن عقربا لدغه :

- أبدا .أبدا لا أعاني من أي مشاكل على الإطلاق.

صاح الطبيب مهدئا وهو يعيده إلى حالته السابقة :

- اهدأ..أهدأ..أرخ أطرافك تماما ..أريد منك أن تتحدث لا تخش شيئا . أمامنا وقت قبل إجراء الجراحة...ما رأيك في الحيـــاة .. الدنيا .. الكون ؟

لم يشعر بالكلام وهو يخرج من فمه وكأنـــه يلقـــي قصـــيدة يحفظها عن ظهر قلب :

- الكون كرة ضخمة .. من الزجاج تسبح في ظلام ســـرمدي و نحن نسبح معها .. فلا نرى ما بخارجها وفي نفس الوقـــت لا نرى أنفسنا .

راح الطبيب يصفق في إعجاب :

- عظيم فكرة فلسفية رائعة..
- لا أحب الفلسفة
- لماذا؟
- الأفكار الفلسفية لا تعدو عن هذيان رجل واقع تحـــت تـــأثير مخدر .. بنج كلي .

قطب الطبيب ما بين حاجبيه وقرب وجهه منه وهو يسأل :

- من أنت ؟

نفخ بقوة :

- أنا شخص عار ، ملطخ بروث الماضي ، تلاحقني العيون الفضولية النهمة لأكل العفن ومضغ الجيف ..
- لكنني أعلم أنك تعيش حياة مستقرة متزوج وتعمل في وظيفة مرموقة . ومحبوب من الجميع .

ضحك في مرارة :

- المرآة المشروخة تخفي كثيرا من الحقائق .

علق الطبيب :

- لجأت ثانية إلى الفلسفة التي تمقتها ؟
- ما أكثر الأشياء التي نمقتها ومع ذلك نلجأ إليها رغما عنا .. نعلم أن الهواء فاسد ونستنشقه والماء ملوث ونشربه والطعام العفن نأكله ونتلذذ بطعمه .. لقد أدمنا القذارة يا عزيزي وانتهى الأمر .

راح الطبيب ينظر له بارتياب وهو يردد :

- حدثني عن طفولتك هل كانت طبيعية ؟
- أنا طفل محروم سلم حرمانه لرجل طموح فأراد أن ينتقم لطفولته ..

كان الطبيب ينظر له بعينين مفتوحتين يسدلها النعـــاس بينمـــا مضى هو يحكي دون توقف :

- كنت أهوى السيارات الصغيرة تعلقت بواحدة في محل للعـــب الأطفال لم يكن بوسع والدي أن يشتريها لي فقررت سرقتها ، ما إن عدت إلى البيت حتى أحضرت المطرقة وأخذت أهوي عليها فحولتها إلى قطع متناثرة .
- تصرف طبيعي لطفل يمقت السرقة

لم يلتفت لتعليق الطبيب واستطرد :

- مررت بمرحلة مراهقة ساخنة ، وقعت في غـــرام الخادمـــة كادت عيني تخرج على جسدها وهو يرتج مع حركاتها وألبـــد في مكاني أراقبها بالساعات وهي تنظف البيت وتنحني لتمسح الأرض فتتفتح أمامي عوالم مجهولة من الفتنـــة والإثـــارة .. اختليت بها في غرفة الطعام ورحت أحتضن جســـدها اللـــدن بانفعال كالطفل الذي لم يتعلم كيف يأكل فألقى بالطعام علـــى ملابسه . لمحني أبي فصفعني صفعة مازالـــت تتـــردد علـــى وجهي حتى اللحظة قتلت معها كل رغبة لـــي جلســـت فـــي غرفتي وحيدا أبكي .. لا أدري لماذا كنت أبكي هـــل لأننـــي أغضبت أبي أم بسبب الصفعة التي أفقدت معهـــا غريزتـــي ، قررت أن أذهب لأبي كي أعتذر له عندما فتحت الباب وجدته

في حضن الخادمة وكأنني ذكرته بما يجب عليه أن يفعله من زمن .

يبدو أن الطبيب شعر بأن مريضه بدأ يدلي بأسرار خاصـــة لا ينبغي عليه أن يسمعها فطلب منه الكف عن الحديث لكن المريض كان قد انطلق كقطار سريع لا يمكن إيقافه :

- تلقيت منذ أسبوعين مبلغا كبيرا من أخـــد العمـــلاء كرشـــوة اشتريت به فازة ضخمة للغاية لمحت مثلها في قصـــر أحـــد الأثرياء احترت أين أضعها فـــي منزلـــي الصـــغير وأخيـــرا وضعتها في حجرة الجلوس فملأتها بالكاد بعد أن أخليتها مما فيها من مقاعد ومناضد .

قاطعه الطبيب :

- سأجري لك الجراحة وأنت يقظ فـــالبنج لا يبـــدي أي تـــأثير عليك.

لم يعبأ بقرار الطبيب واستمر قائلا :

- غضبت زوجتي عند أهلها ذهبت لمصالحتها فوجـــدتها فـــي أحضان ابن الجيران كدت أقتلها فلم أســـتطع ، فكـــرت فـــي تطليقها لكنني تراجعت عندما تذكرت المبلغ الضـــخم الـــذي كتبته على نفسي كمؤخر صداق ، عـــلاوة علـــى أن والـــدها صاحب البنك الذي أعمل فيه فسكت وهنيئا لابن الجيران .

دعك الطبيب عينيه كي ينفض ما فيهما من نوم وبـدأ يشـق رأسه وهو يقول :

- لا تتكلم حتى أستطيع القيام بعملي .

يبدو أنه لم يسمعه واستمر في حديثه :

- خدعني صديقي من أجل بضعة جنيهات وباعني أخي بأبخس ثمن ، كل من حولي يرصدونني يريدون الإيقاع بي تطاردني زلاتي وخطاياي لذلك فأنا يقـظ أخشـى أن أغفـل لحظـة فيقتلونني ، الناس جميعا نيام وأنا اليقظ الوحيد

نهره الطبيب :

- قلت لك أصمت .. أصمت .. المشرط في يدي ورأسك مفتوح ألا تشعر بالألم ؟

- الألم شعور لذيذ لإنسان يقظ مثلي ، كم أشعر بلذة شديدة وأنت تشق عظام جمجمتي وتمزق أنسجتي يا لهـا مـن لحظـات رائعة.

تحركت يد الطبيب بعيدا عن الورم الناتئ في تجويف الجمجمة متجهة نحو منطقة بعينها وراح المشرط يجري فيها بينمـا أخـذ المريض يهذي بكلمات ضعيفة ترنحـت علـى شـفتين بـاهتتين وارتعش جفنان ثقيلان ببطء فوق عينين زائغتـين بـدأ يحتويهـا الخدر ويغزوها النوم لأول مرة .

مال أحد المساعدين على الطبيب هامسا :

- هذا ليس مكان الورم .. بل مركز الذاكرة .

أومأ الطبيب وهو مازال يواصل عمله :

- هذا الرجل بحاجة إلى استئصال ذاكرته حتى يكون مثـل كـل الناس تحت تأثير بنج كلي ..

محجوب بالمقلوب

انتزعني جرس الباب من نومي انتزاعا برنينه المزعج الـــذي يصم الآذان ويقلق الموتى في قبورهم ، وجاءني صوت عم عبده " الزبال " من الخارج :

- الزبالة يا أستاذ محجوب .

صحت بصوت مازال يغط في النوم :

- حاضر يا عم عبده حاضر .

أحضرت سلة القمامة من المطبخ وسرت حثيثا أحـــك قـــدمي بالأرض ، فتحت الباب وأنا أتثاءب في تكاسل وعينـــاي نصـــف مفتوحتين نصف مغمضتين . استرعى انتباهي شيء نفـــض مـــا تبقى من نوم بعيني ، ففتحتهما على مصراعيهما وأنا أنظر إلـــى عم عبده . فركت عيني بإبهامي فاغر الفاه غير مصدق . هل جن عم عبده ؟ أم أنني لم أستيقظ بعد ؟

كان عبده الزبال واقفا بالمقلوب ، رأسه فـي الأرض وقـدماه في الهواء دون أن يعوقه هذا الوضع من فض سلال القمامة فـي قفته التي يحملها فوق ظهره الأحدب . صرخت رغما عني:

- عم عبده . لماذا تقف مقلوبا ؟

نظر لي عبده بدهشة وهو يصيح :

- سلامة نظرك يا أستاذ محجوب . هاأنا أقف أمامك معـدولا . يبدو أنك مازلت نائما . أدخل لتكمل نومك .

قال هذا وهو يدفع لي بسلة القمامة الفارغة وينطلق مقلوبا إلى الطابق التالي . دخلت واستلقيت على سريري عائدا إلى النـوم ، لكنني لم أنم . مازال عقلي يفكر في عم عبده المقلوب . إنني لـم أكن نائما ، لقد رأيته بالفعل مقلوبا . ولم الحيرة ؟ فلأتأكد ..

أسرعت إلى الباب ثانية . فتحته . رحت أنادي على البواب :

- سليمان . يا سليمان .
- أي خدمة يا أستاذ محجوب ؟
- اطلع حالا . أريدك في أمر هام .

جاءني سليمان يسعى فوق الدرج ، ولدهشتي كان مقلوبا أيضا مثل عبده الزبال . خفق قلبي وصحت بنبرة مرتعشة :

- حتى أنت يا سليمان ؟

نظر سليمان إلى نفسه وسألني :

- ماذا بي يا أستاذ محجوب ؟

كدت أصارحه لولا أنني أمسكت عن الكلام ودخلت إلى شقتي كي أتأكد أكثر ، فربما الكأسان اللذان تجرعتهما بالأمس مع ندماء السوء قد أدارا رأسي وجعلاني أرى الناس والأشياء مــن حــولي مقلوبة .

اتجهت إلى النافذة . عندما فتحتها وجدت كل شيء مقلوبـــا . الناس . السيارات . البيوت . حتى القطط والكلاب . دارت الــدنيا من حولي ، وشعرت أنني سيغمى علي ، فألقيت بجســدي علـــى مقعد قريب وأنا أمسك رأسي وأتساءل :

- ما الذي أصاب الناس ؟ هل تقليعة جديدة اتخذها النـــاس مـــع بداية القرن ؟ أم مس من جنون قلبهم رأسا على عقب ؟ أم أن الحياة لم تعد تُحتمل الاعتدال فصار كل شيء فيها مقلوبا ؟

مرق برأسي خاطر غريب . هل أنا أيضا مقلوب مثل النـــاس ؟ أم أن الانقلاب لم يعترني بعد أسرعت إلى مرآة حجرة النـــوم . نظرت فيها . لدهشتي وجدتني أقف معدولا . رحت أرقص أمـــام المرآة وأغني في سعادة :

- أنا معدول . أنا معدول ...

توقفت عن الرقص والغناء لأتساءل :

- ما جدوى أن أكون معدولا والناس فـــي عينـــي مقلوبـــون . بالتأكيد هناك سر وراء هذه الظاهرة الغريبة التي طرأت على الناس والأشياء .

ارتديت ملابسي بسرعة وبعد ثوان قليلة كنت فـــي الشـــارع أحملق في الناس والأشياء . الكل مقلوب .. رؤوس تمشي علـــى الأرض وأرجل تضرب الهواء . قد يكون العيب في ولـــيس فـــي الناس .. الأمر بحاجة إلى استشارة طبيب متخصص .

استقللت سيارة مقلوبة . يقودها سائق مقلوب . انطلقت بي في شارع مقلوب . لتتوقف بي أمام عمارة مقلوبة . التهمت درجاتهـــا سريعا حتى وصلت إلى عيادة طبيب العيـــون . كـــان المرضـــى يجلسون في صالة الانتظار وهم مقلوبون . أمرني " التـــومرجي " المقلوب أن أنتظر حتى يحين دوري . بعد فتـــرة نـــادى علـــي . دخلت ليطالعني الطبيب مقلوبا . سألني :

- مم تشتكي ؟

صحت بصوت لاهث أرهقه الخوف والقلق :

- أرى كل شيء مقلوبا يا دكتور .

دون أن ينطق أشار لي نحو " الشيزلونج " . تمددت عليـــه . راح يتفحصني باهتمام . فتح عيني ووجه نحوهما ضوءا شـــديدا

غشاهما ، أخذ يتأمل قاع عيني الماثل أمامه على الشاشة . انقلب وجهه فجأة وسألني :

- منذ متى وأنت ترى الأشياء مقلوبة ؟
- اليوم فقط يا دكتور .

هز رأسه وهو يقول بلهجة محبطة :

- انحراف البصر البؤري .

ثم تركني واتجه نحو مكتبه وراح يدون بعض الملاحظات . تبعته كتائه ضل طريقه داخل مدينة غريبة وأنا أقول :

- هل هناك خطورة ؟

ترك القلم ونظر في وجهي وهو يقول :

- لن أخفي عليك . لقد أصاب عينيك مرض غريب لم تتعرض له من قبل . لا أدري كيف حدث لك هذا . فأنت تعلم يا عزيزي أن بؤرة العين تنطبع عليها صورة الأشياء بالمقلوب ، لترتد مرة أخرى على الشبكية فتراها العين معدولة . الذي حدث لك بالضبط أن بؤرة العين لا تستطيع أن تقوم بتعديل الصورة وبذلك تظل الأشياء أمام عينيك مقلوبة .
- والعمل يا دكتور ؟

- كما قلت لك المرض نادر والحالة جديدة علينا وأمامنا عـدة سنوات قبل أن نتمكن من إيجاد حلول لهذه الحالـة . كعمـل نظارات تقوم بتعديل الصورة أو تركيب عدسات لاصقة .
- معنى هذا أن أعيش بقية عمري بعين ترى الأشياء مقلوبة .

ترك مكتبه وراح يربت على كتفي مواسيا ومشجعا :

- غيرك يعيش عمره كله دون أن يرى .
- ولكنه يرى بقلبه الناس والأشياء معدولة وليس مثلي أراهـا مقلوبة .

جلس أمامي واضعا ساقا فوق ساق وهو يقول بلهجة فلسفية :

- ما أدراك ؟ لعل عينك المقلوبة هذه ترى الأشياء على حقيقتها . وغدا ستعتاد ذلك ويكون الأمر طبيعيا بالنسبة لك .

تركته وقد حرمت أمري على أن أتعرف على حقائق الأشـياء بعيني المقلوبة ، مدربا عقلي على القيام بتحويل الصور المقلوبـة إلى حقائق معدولة .

رحت أجوب الشوارع والطرقات والأزقة أتفرس في وجـوه الناس المقلوبة رؤوسهم تلامس الأرض . أقدامهم تضرب الهـواء ، فتنتابني أحاسيس متضاربة بين السـخرية والأسـف . أتأمـل الأبراج والأبنية العالية التي كنت أراها تناطح السحاب فإذا هـي الآن مقلوبة . أسطحها مغروزة فـي الأرض ومـداخلها تنـاطح

السحاب . أعلامنا وراياتنا التي كانت ترفرف في الهـواء تتعلـق بها أعيننا في إجلال وتقديس أراها اليوم بعيني المقلوبة مضموسـة في التراب وصواريها واقفة جرداء مزعزعة في الهواء ، كعـود يابس اشتدت به الريح في يوم عاصف . مررت بزعمائنا الـذين يربضون في ميادينا الشهيرة في شموخ وإعزاز لدهشتي وجدتهم مقلوبون على رؤوسهم في ذل وانكسار . جن جنوني .

قادتني قدماي إلى الأهرامات الثلاثة لأرى رؤوسها مثبتة فـي الأرض وقواعدها تنظر إلى السماء .. كدت أبكي . بـل بكيـت بالفعل . رموز حضارتنا وتاريخنا المجيد الذي نفخر به على مـر العصور أراها في عيني مقلوبة رأسا على عقب . لم أحتمل كـل هذا الانقلاب . أية كارثة هذه التي حلت بعيني ؟ . أهون علي أن أفقأهما من أن أرى الحقيقة مقلوبة .

دون أن أدري وجدت نفسي أنـدفع بجسـدي إلـى الأمـام . أتشقلب في الهواء كالبهلوان . رأسي إلى أسـفل . قـدماي فـي الهواء ، وقررت أن أنقلب .

بالرغم من أنني صرت أضحوكة بين الناس ومثارا لسخريتهم ونكاتهم السخيفة فقد كنت سعيدا لأنني اسـتطعت أن أرى حقـائق الأشياء كما ينبغي أن أراها دائما معدولة ، حتى لو صرت وحدي مقلوبا .

لا تجذبي

أغمضت السماء عينيها الذابلتين مسدلة جفونها على صــفحة الوجود لتحيله إلى عدم ، وتثاءبت الأرض في تكاسل شديد قبــل أن تتسلمها ارتعاشة النعاس الأخير ، وغابت الشمس مــن علــى وجه الحياة وتبعها القمر ولم تبق سوى سحابة جليدية عاتية تغلــل محيط الأرض ، فبدت كعروس جميلة تتواري في كفنها .

من بعيد كان الناس يتقافزون كالفشار بعد أن لفظهم كــوكبهم الأثير وراحوا يسبحون في فضائه مبتعدين عنه وهم يصــرخون في فزع ، بينما كنت أحاول مع الناس أن أتشبث بصخور الأرض حتى لا ننفلت منها ، ولكنها كانت سائرة نحو مصيرها المحتــوم وكأن يدا قوية تجذبها إلى المجهول .

كنت أنطلق في الفضاء دون إرادة أتردى في سرمدية مظلمــة كأنني أتهاوى في أعماق جب ليس له قرار .. أصرخ بلا صــوت

، أتملص بلا وعي ، أتشبث باللاشيء ، محاولا أن أمسك بأهداب الحياة التي فرت من بين أيدينا في غفلة منا ..

فجأة استيقظت من نومي وأنا أصرخ .. ياله من كابوس فظيع .. لم تكن المرة الأولى التى أرى فيها هذا الكابوس ، فقد اعتاد زيارتي ليقض مضجعي ويقلق منامي .. يجب أن أعرض نفسي على أخصائي ..

تركت فراشي . وقفت أمام المرآة متهيأ لحلاقة ذقني . شعور غريب استولى علي . لم أشعر بالارتياح إلى تلك الصورة التي تطل إلي من خلال المرآة .. صورتي .. تساءلت .. هل يمكن للإنسان أن يمل صورته ؟ .. عدلت عن حلاقة ذقني . تركت المنزل وقد تضخم لدي الشعور بعدم الارتياح إلى الضجر من كل شيء يحيط بي .. الناس ، الحيوانات ، السيارات ، الطرق ، حتى المباني .

لم يكن لدي أدنى شك في أن الناس يبادلونني نفس الشعور وتلك النظرة بالتأفف والضجر . الجميع لا يطيقونني ، يبدو أنني قد فقدت جاذبيتي ، بل إنني لم أعد أطيق أحدا .. طلقت زوجتي بالأمس بلا سبب ، فجأة شعرت بكراهية شديدة نحوها ، لم تعد تجذبني .

ما أسوأ هذا الشعور .. أن تجد قوى التجاذب بينك وبين الناس قد فترت وحل محلها التنافر والحقد والكراهية بلا مبرر .. عدت إلى البيت سريعا وأنا أفكر في الحالة الشاذة التي وصل إليها الناس ، وكأن كل الخيوط التي كانت تربطهم فيما قبل قد تمزقت ..

شعرت بالجوع ، لم يكن لدي الرغبة في تناول الطعام .. أريد طعاما لا أعرفه ولم أذقه من قبل . طعاما ليس له وجود على هذه الأرض .. شعرت بالظمأ .. بالرغم من أن الماء كان قريبا مني ، فإنني لم أجد داخلي الرغبة في ارتشافه ، فهذا الماء لا يروي ظمأي ولا يبرد النار المستعرة داخلي ..

يا لمزاجي المنحرف .. ما الذي أصابني وأصاب الناس في آن واحد .. شعرت بالملل أسرعت إلى التلفاز هربا من تلك الحالة القاتلة التي وصلت إليها .. وجدت مسرحية كوميدية كنت أستلقى على قفاي من الضحك كلما شاهدتها ، اليوم جلست أشاهدها بلا حماس ، المشاهد التي كانت تضحكني صارت مصدرا لتعاستي وزيادة اكتئابي ، النجم الذي كنت أحبه وأقدره أصبحت أمقته ولا أطيقه .

أحسست بالغثيان . قررت إغلاق التلفاز ، قبل أن تصل أصابعي إلى " الريموت " ظهر المذيع على الشاشة بوجه عابس

مكفهر يعلن بنبرة مرتعشة والدموع تملأ عينيـــه بدايـــة الحـــرب العالمية الثالثة . لم تقم الحرب بين دولة ودولة أو مجموعـــة دول فحسب ، بل امتدت لتشمل كل مدينة وبيت ثم اتسعت لتقــوم بـــين الأفراد فيما بينهم .

لم يكمل المذيع إلقاء البيان ، فقد ظهر مذيع آخر وجه مسدسه نحو زميله وقتله ثم راح يلقي بيانا آخر بوجـــه أشـــد اكفهـــرارا وبنبرة أكثر ارتعاشا :

- أيها السادة . إليكم هذا النبأ العلمي الخطير ، في الوقت الـــذي يمر فيه كوكب الأرض بالعديد من المحن لم يمر بها فـــي أي عصر من العصور الغابرة ، أعلن مجموعة من العلماء قبـــل قليل أن كوكب الأرض قد فقد جاذبيته .

ما كاد المذيع ينتهي من إلقاء البيان حتى وجه فوهة مسدســـه نحو رأسه .. أطلق عدة رصاصات ، استلقى بعدها جثة هامـــدة . كنت أنظر إلى شاشة الجهاز مدهوشا لا أصدق .. مرق بخاطري ذلك الكابوس اللعين الذي يلاحقني في منامي ، وها هو يطـــاردني في يقظتي هل قدر للبشرية أن تنتهي تلـــك النهايـــة المأســـاوية ، فانعدام الجاذبية يحمل بين طياته معان كثيرة لا يمكـــن إدراكهـــا دفعة واحدة .. فمعنى هذا أن يتلاشى الغـــلاف الجـــوي ويهـــرب القمر من أسر جاذبية الأرض وتجتاح مياه البحـــار والمحيطـــات

الكرة الأرضية ، ويفر الأكسجين من علـــى ســطح الكوكــب ، وتتهاوى في الفضاء أجساد الكائنات والأشياء .

وانتبهت على صوت فرقعة قوية صادرة من جهـــاز التلفـــاز سكن بعدها إلى الأبد . لم أهتم فلا شيء يهم بعد أن تفقد جاذبيتك ، وكما توقعت ، فقد توالى تعطل الأجهزة الإليكترونية عن العمل ، خاصة الأجهزة التي يكون للمغناطيسية دور فيها كـــالموتورات وأجهزة الكمبيوتر واللاسلكي والهواتف المحمولة .

ما الذي أصاب الأرض حتى تفقد جاذبيتها ؟ هل نوع جديـــد من السرطانات أصاب مـــادة الجاذبيـــة الأرضـــية وراح يحـــل جزيئاتها ويفككها لتنهار وينهار معها النظام المغناطيســـي للكـــرة الأرضية بأسرها ؟

حل بي شعور غريب . خيل لي لوهلة أني فقـــدت جـــاذبيتي بالفعل . أحلق في فراغ الغرفة . أتسرب من تحت عقـــب البـــاب كالأثير . أنطلق في الشوارع والطرقات كـــالمجنون . الآن فقـــط أدركت سر ذلك الإحساس الذي طالما اجتاحني في الأيام الخالية ، الدوخة الغثيان الزغللة رؤية الناس والأشياء مـــن حـــولي كأنهـــا ستنقلب رأسا على عقب وأخيرا الكابوس .

هذه الأرض التي خلقنا عليها .. عشنا على سطحها منذ بـــدء الخليقة .. بنينا فوقها حضاراتنا .. انطلقنا بين ربوعها .. عشقناها

فعشقتنا .. ضمتنا في حضنها الرحب عند المولد وعند الممات .. فكنا نحن وهي سواء .. صدرت لها الأوامر بأن لا تجذبي فانصاعت للأمر .. لا . لا . لن نترك الأرض . لن نترك الأرض ..

عدت إلى البيت أقيم الدعامات والأوتاد لأثبت بيتي بالأرض ، بل إنني ربطت جسدي بالأرض حتى لا أنفلت منها عندما تنعدم جاذبيتها ، ولكنني تذكرت أن الأشجار ستقتلع من جذورها والهواء سيضيع في الفضاء بما يحتويه من أكسجين لازم للحياة . فالهلاك قادم لا محالة .

استلقيت على فراشي يائسا حزينا أترقب لحظة النهاية في استسلام الضعفاء . تذكرت ابني الوحيد الذي يعيش مغتربا بأمريكا منذ أكثر من عشرة أعوام . لم أره خلالها مرة واحدة هل أتمكن من رؤيته قبل فناء البشرية ؟ . أسرعت إلى الهاتف . حمدت الله أنه مازال يعمل أدرت الرقم وسمعت صوته عبر آلاف الأميال التي تفصل بيننا . صرخت بصوت لاهث طغت عليه بحة الشوق واللهفة :

- حسين . ولدي .

جاءني صوته باردا كالثلج :

- أهلا بابا . كيف حالك ؟

- تسألني عن حالي يا حسين ؟ حالي لا يسر يا بني . لقد فقدت جاذبيتي .

سمعته يضحك ثم عقب قائلا :

- يبدو أنك متأثر بالشائعة الدائرة هذه الأيام عن فقدان الأرض لجاذبيتها .

- هل وصلت إليكم ؟

- بل نحن الذين ابتدعناها . محض إشاعات . الأمر بسيط للغاية . العلماء هنا يقولون إن الأرض فقدت جزءا من جاذبيتها بسبب الارتفاع المفاجئ في درجة حرارة الأرض نتيجة اتساع ثقب الأوزون وزيادة نسبة ثاني أكسيد الكربون في الجو والتفجيرات النووية لكن اطمئن ، حتى لو فقدت الأرض جاذبيتها . الأمريكان لديهم القدرة على صنع جاذبية بديلة . تكنولوجيا .

- حسين . أريد أن أراك . متى ستأتي يا بني ؟ ألم تشتق إلي ؟

- لا أدري يا أبي . سوف يكون بيننا تليفون .

عندئذ توقف الهاتف عن العمل وفرت منه الحرارة ، تكشف شوقي اللافح على برودة صوته مطرا غزيرا انبثق من عيني . شعرت بالاختناق . أريد أن أكلم أحدا . أي أحد .. فؤاد .. أخي فؤاد .. كانت بيننا خصومة على قطعة أرض ورثناها من أبينا .

كان يريد أن يستولي على أرضي بحجة أن أبي قام ببيعهـا لــه . رفعت عليه قضية وكسبتها . ومن يومها انقطع ما بيننا . ولكـن يبدو أننا سنخسر أرضنا جميعا . سوف أفتح معه صفحة جديدة ، وسأتنازل له عن نصيبي في الأرض . أين التليفون ؟ يـا للحـظ السيء . إنه معطل . سوف أذهب إليه ..

- فؤاد .. أخي .. أرجو ألا تكون غاضبا مني . العمر يجـري سريعا ولم يبق من أيامنا أكثر مما مضى .
- ماذا تريد يا صبري . أدخل في الموضوع مباشرة .
- كل ما أريده أن نفتح صفحة جديدة معا . أن نتقارب أكثـر . أن نحافظ على الرباط الطبيعي الذي بيننا . أن نبقي على مـا تبقى من جاذبية فينا .

راح يقول بلا اهتمام وهو ينظر في ساعته :

- أنا لا أنظر ورائي يا صبري . معذرة كان بـودي أن أبقـى معك وقتا أطول . ولكن لدي موعدا مهما .

تركني وانصرف بينما كنت أحلق خلفه وأنا أصرخ :

- انتظر يا فؤاد . انتظر . الأرض ستضيع منا . أرضنا كلنا يا فؤاد .

ها هو جاري السيد منصور . منذ وقت طويل لم يـدر بيننـا حديث . لا أذكر آخر مرة تحدثنا فيها . كل ما أذكـره أن الكـلام

الذي كان بيننا تحول إلى سلام فاتر ، ثم إلى كلمـــات مقتضـــبة ، فحركة بطيئة من يد كليلة ترتفع قليلا ثم تعود مكانهـــا ، ولزمـــت اليد مكانها ، انقطع ما بيننا ..

- سلام عليكم يا سيد
- سلام

قالها مبتورة ، فلم أتبين إن كانت سلاما أم سبا .

- مالك يا سيد . فجأة تغيرت من ناحيتي لا أدري لماذا ؟

واندفع الكلام من فم سيد كالمدفع ما بين زجر وسب وتهديـــد ووعيد ، ثم دخل داره وصفق بابها في وجهي .

أظلمت الدنيا في وجهي . الآن فقـــط أدركـــت لمـــاذا فقـــدت الأرض جاذبيتها ؟ لأننا فقدنا جاذبيتنا . ونحن من مادة الأرض . وعلينا أن نبدأ من أنفسنا .

في المساء رددت زوجتي ، وعرجت علـــى جـــاري الســـيد منصور الذي ما أن رآني حتى صاح :

- أنت يا رجل يا مخبول.. ماذا تريد ؟

قبل أن يتمادى ضممته إلى صدري ورحت أقول له :

- ليس هذا وقت عتاب يا سيد يا منصور . الأمر أخطر بكثيـــر من معرفة من المخطئ فينا . فالأرض في خطر يا سيد ؟
- أية أرض تقصد ؟

- أرضنا جميعا يا سيد .

يبدو أن السيد منصور كان يشعر في قرارة نفسه بالخطر المحدق بنا ولكن لم تكن لديه القدرة على تفسير ذلك . وبينما كنت أقص عليه سر الجاذبية المفقودة كانت أيدينا تحمل أجساد الضحايا وتضمد جراح المصابين وتزيل ركام البيوت المنهارة وتمسح دموع الثكلى وتغرس الأشجار التي اقتلعها أعداء الجاذبية ، وعندما تعبنا جلسنا تحت ظلها نستنشق بعض الهواء . والتقت عينانا في نظرة طويلة وتعانقنا في حب كنا فقدناه لوقت طويل .

هذه المجموعة

= صدر للمؤلف

١- أنقذوا هذا الكوكب - مجموعة قصصية - ١٩٨٥

٢- العمر خمس دقائق - مجموعة قصصية - ١٩٩١

٣- وصية صاحب القنديل - دراسة - ١٩٩٥

٤- صحوة - دراسة عن الأديب يحيى حقي - ١٩٩٥

٥- بنت الحاوي - مجموعة قصصية-١٩٩٧

٦- عائلة السيد رقم ١ - مسرحية - ١٩٩٩

٧- السلمانية - رواية - ٢٠٠١

٨- ثمرة حب خائب - دراسة - ٢٠٠٢

٩- بدرية بالخلطة السرية -مجموعة قصصية - ٢٠٠٣

١٠- قراطيس - مجموعة قصصية - ٢٠٠٤ -

١١- محجوب بالمقلوب - مجموعة قصصية - ٢٠٠٦

= تحت الطبع

١- الكوكب الجنة (رواية من الخيال العلمي) - نادي القصة

٢- عيون أينشتين (مجموعة قصصية) - هيئة الكتاب

٣- مدار النسيان (مسرحية) هيئة الكتاب

٤- خزانة شمائل (رواية)

= المؤلف في سطور

عضو اتحاد كتاب مصر ، عضو نادي القصة ، مذيع بالبرامج الثقافية بإذاعة صوت العرب ، دبلوم دراسات عليا في الإعلام من كلية الإعلام جامعة القاهرة .

نشر في العديد من الصحف والمجلات العربية والمصرية مثل الأيام البحرينية ، المنتدى الإماراتية ، البيان الإماراتية ، المنتدى السعودية ، والأهرام والجمهورية والمساء والقاهرة والقصة بمصر ، ومجلـ ـقدم العلمي بالكويت ..

كتب عددا من ـل الدرامية للإذاعة والتليفزيون المصري ما بين السهرة والسباعية والمسلسل منها " السلمانية - خليها على الله - في البحر والسواحل - الحب فوق السطوح - البحث عن شمندل ".

= الجوائز الحاصل عليها :

١- جائزة الكتاب الأول بالمجلس الأعلى للثقافة عن المجموعة القصصية أنقذوا هذا الكوكب عام ١٩٨٥

٢- جائزة الثقافة الجماهيرية عن القصة القصيرة " العمر خمس دقائق " عام ١٩٩١

٣- جائزة محمد تيمور للإبداع المسرحي عن مسرحية عائلة السيد رقم ١ عام ١٩٩٣

٤- الجائزة الأولى في الرواية بنادي القصة عن رواية السلمانية عام ٢٠٠٠

٥- الجائزة الثالثة في الرواية بنادي القصة عن رواية الكوكب الجنة عام ٢٠٠٠

٦- الجائزة الأولى بجمعية الأدباء عن مجموعة " بدرية بالخلطة السرية " عام ٢٠٠٤

٧- الجائزة الثانية في مسابقة إحسان عبد القدوس للرواية عن رواية " خزانة شمائل " عام ٢٠٠٥

الناشـــــــــر

دار النيـــــــــل

للنشر والطبع والتوزيع
١٢ شارع عبده بدران
م الباشا – المنيل – القاهرة
ت : ٣٦٢٢٥٧٨

رقم الإيداع : ٢٣٩٦٤ / ٢٠٠٥
الترقيم الدولي
X-٩٧٧/٥٤١٤/٨٩

E.mail: salah_maaty@hotmail.com